النتيجة الكبرى

قد تكون احدى نتائج الحرب ، وفي بلدان الشرق العربي بنوع خاص — وهي النتيجة الكبرى على ما نرجح ، سيكون لها ما بعدها — ان الحرب بما يلازمها من ظروف استثنائية ادخلت او اوشكت ان تدخل « الجماهير » الذين يسمون العامة ، في دائرة نظر القادة ، اي المفكرين والادباء ، بله رجال السياسة : العامة وما يلابسهم من حالات ويتصل بهم من شؤون ، على اختلاف انواعها ، او المعاشية منها على الاقل ، ثم تتبع سائر الشؤون . وبديهي ان هذا السواد الاعظم من ابناء البلاد كانوا ، الى زمن غير بعيد ، فيما وراء افق « الخاصة » كالالوان « الأغفل » التي ليست تراد لذاتها ، لكن يراد بها ابراز صور الرسام .

وإخال ان اغلبية هذه الفئة الممتازة من الذين سُموا او يسمون انفسهم « الخاصة » ستفتح ابصارها على ذلك المشهد ، مشهد تقدم الجماهير حتى تسد الافق ، بشيء من الذعر وكثير من الدهشة ، لكن لن يلبث الذعر حتى يغطي على الدهشة . فلطالما اصطلحنا على تنحية « العامة » كما يسمونهم ايضاً ، من ميادين الحياة العامة ، بما تمثله الحياة من ضروب الادارة وادوات الحكم وتصنيف العلاقات وتوزيع الخيرات وتقرير التكاليف — كأن هذه جميعاً متاع هؤلاء الخاصة ليس ينازعهم فيه منازع : لا شركة للعامة في الحياة العامة ! ومما تحسن الاشارة اليه هنا ان « العامة » و « العام » في الاصل اللغوي لا تدلان على معنى من معاني الامتهان او الازدراء او الهجر التي اضافها اليهما « الخاصة » و « الخاص » بل على الضد .

وهكذا ظل المفكرون في ظهرانينا ، مدة مديدة ، يتخبطون على تخوم النظريات الغيبية ، والادباء يتنادرون ويتظرفون فيما بينهم ، ورجال السياسة حتى « الوطنيين » منهم لا يعرفون ان هذا الوطن الذي ينتسبون هم اليه قد يتجاوز حدود ذواتهم — والحكم سجال تتولاه فئة ثم تتولاه .. الفئة نفسها .

اما السواد الاعظم بهمومه الملحة وآلامه المباشرة وامانيه وآماله التي لا تفتأ تطلب من يحسها ويكتنهها ويترجم عنها .. اما السواد الاعظم بمسائله ومشاكله التي لا تفتأ تجد وراء اجوبتها وحلولها السريعة .. اما السواد الاعظم بما يجيش في احشائه من حياة زاخرة مضطربة مشتتة تلتمس صيغها واشكالها وسبلها وغاياتها .. ان هذا السواد الاعظم يكاد لا يشغل حيزاً من الدائرة — الرحبة الضيقة — التي اقام حولها مفكرونا وادباؤنا وساستنا ، كسدَّ الصين .

واذا كانت بلاد الشرق العربي حديثة عهد بتلك الظاهرة الاجتماعية ، فالمجتمع الغربي قد عرفها وتمرس بها وانتهج طرقاً عدة لمعالجتها ، بعضها وُفق وبعضها اخطأه التوفيق . وستكون هذه الحرب ، ولا مراء ، بل هذه « الرجة » العظمى في اسباب الحياة وفي الافهام والضمائر ، اوسع خطوة يخطوها المجتمع نحو استقراره الاقتصادي والاجتماعي ، وقد كان يقنع بالمسكنات .

ولن تكون بلادنا بمعزل عن الحركة العامة التي تدفع الامم الى احتذاء اساليب جديدة في الفكر ، وصيغ مستحدثة من الحياة : هو هذا الطوفان ، و « لا عاصم اليوم » .

حسبنا ان نستبق الاحداث ، فنوفر عن نفسنا ما كابدته وتكابده الامم ، قبلنا وحولنا ، من الاختبارات الموجعة والاصطدامات المنهكة .

عمر فاخوري

الشعر الرمزي

بقلم الدكتور نقولا فياض

◆

قلت في مقالي السابق عن الرمزية ان ما يسمونه الشعر الرمزي هو بدعة المجددين في اواخر القرن الماضي وهو تجربة قام بها بعض ادباء الفرنسيس فتركت دوياً في المحافل والاندية وكان لها من الاثر مثلما كان للرومانتيكي والواقعي قبلها . غير انها كانت قصيرة العمر فما عتمت ان اقوت معالمها وتفرق مؤسسو المدرسة الرمزية ايدي سبا ليتبع كل واحد طريقه الخاص يدفعه فيه ميله الطبيعي واستعداده الفطري .

على ان الاثر العميق الذي تركته في الشعر الحديث جعل تاريخها مرتبطاً بتاريخ هذا الشعر من عام ١٨٨٠ الى عام ١٩٠٠ وما بعد ، حتى ان عدداً غير قليل من الشعراء الذين نبغوا في هذه الحقبة من الزمن اطلق عليهم لقب الرمزيين وان لم يمتوا الى الرمزية بنسب .

وكانت الغاية من الرمزية حركة تجديد يقصد بها معارضة الشعر البارناسي والطبيعي اللذين كانا مسيطرين لذلك العهد على الادب الفرنسي . فقد ملّت الناشئة الجديدة هذا الادب الذي ليس فيه على زعمهم الا تأليه للقوة يبعث على الخشونة ، وتجاف عن الخيال يمسح من رواء الديباجة ، وتقعير في الصناعة يسوق الى الابتذال . فالشعر البارناسي يطرب الاذن دون ان يجد سبيلاً الى القلب وكذلك الواقعي . وعلى رغم من شهرة زولا حينئذ واقبال الناس على قراءة كتبه فقد قامت قيامتهم عليه ونشروا رسالتهم المشهورة بتوقيع خمسة منهم يأخذون فيها على الطبيعيين ان يكتبوا بلغة «الامنيبوس والاخبار الشتى » وان يجعلوا البطن هدف اجناسهم كأن لم يبق للروح الفرنسية نافذة تطل منها على المثل الاعلى .

على ان هذا لا يخلو من المبالغة او التعارف ، وعندي ان من اكبر العوامل التي اثارت هذه الفتنة في الادب هو شيء من العجز او التقصير في مجاراة فطاحل الشعراء السابقين ، او خط طريق لمثل الشهرة التي كان يتمتع بها بعض المعاصرين ولا سيما الفرد ده موسه الذي نال من اقبال الناس عليه لذلك العهد ما لم ينله الا القليل حتى صارت بعض كتبه ككتب الصلاة في يد كل فتى وتحت وسادة كل فتاة . فلم يجدوا ندحة لهم عن انتهاج مسلك جديد يلفت اليهم الانظار وقادوا في انتقاد معاصريهم والنيل منهم والاشادة بمحاسن بدعتهم وسن شرائع جديدة ، للنظم ونسوا ان الشاعر الخليق بهذا الاسم ليس في حاجة الى الدعاوة وان يقول كيف ولماذا ينظم . حسبه ان يندفع بتأثير العاطفة والوحي فيكتب ما يبقى له او عليه حتى اذا تسنى له الضرب على اوتار كل فؤاد ، كما قال كارليل ، كان الشاعر العظيم .

على كل فان هذه الثورة الادبية لم تنفجر فجأة ولم تقع مبادهة . والى جانب الرغبة التي كانت تجيش في صدور بعضهم بشق سنة جديدة يكون لها اثر جديد اتاحت الاقدار عوامل مختلفة عبّدت لها الطريق وساعدتها على الظهور . وهذه العوامل غريبة المصادر منها ما يعود الى انكلترا ومنها الى المانيا او روسيا .

لقد كان الادب الانكليزي رسالة صلاح واداة تهذيب . فكانت الروايات والقصص والاشعار تحمل طابعاً خاصاً من التصوف والقنوت ككتب جورج اليو وسونبرن ، وامتد ذلك الى الفن فجددوا الرسم والتصوير بالرجوع الى ماقبل عهد رفائيل Préraphaélisme متوخين الدقة في الخطوط والفكرة والتبشير ، بطبيعة آلهية قائمة على الجمال والادب والدين .

وقد نقلت كتب اليو وسونبرن الى الفرنسية كما نقل كتاب المبادىء الاول لسبنسر وهو يعارض تعاليم اوغست كونت الوضعية ، وكتاب هوتمن «العقل الباطن» وفيه تعليل للكون بوجود قوة لا واعية تدبر اموره .

واندفعت من روسيا موجة انسانية تحمل الرحمة والحرية والانتصار للبائس والضعيف والعبد يزفها الى القراء مؤلفات تورجنف ودوستويفسكي وتولستوي .

وكانت مبادىء شوبنهور قد اخذت بالتسرب الى فرنسا ولم يكن فيها ما يعارض الوضعية او العلم ، الا ان مسحة التشاؤم واليأس التي عليها اصابت من النفوس مرعى خصباً للاوهام والتعلق بما وراء الطبيعة ، كما ان كتابات استاذه فيخت جعلت من « انا » المبدع الدائم ، واغاني فردريك نوفاليس الدينية وكتابه « اناشيد الى

الليل » جعلت الايمان المرجع الوحيد في كشف القناع عن جوهر الوجود . ومن حول هؤلاء شعراء مثل شلر وغوته وشيلج يحلمون بسبك الموسيقى والشعر وجمال الصياغة في قالب واحد .

وكانت حركة الفن قد سبقت حركة الادب والموسيقى واكثر ماترددا اصداؤها على ملاعب التمثيل والاوبرا في فرنسا على الرغم من مقاومة الشرطة العنيفة لها .

ازاء هذه العوامل المختلفة وفي ظل تأثيرها الم بالشبيبة ما يشبه الشوق الروحاني، واخذت تبحث عن اشخاص رمزيين للتعبير عن الافكار . وكما كان الانشاء التصوري غاية المؤلفين في الروايات والقصص فتحت هي مجالاً للانشاء الموسيقي، اي انها اخذت تهتم بالجرس ورنة الالفاظ اهتمامها بالمعاني، وجمعت بين الشعر والموسيقى كما كان في الزمن القديم . بل ان موسيقى واغنر ذهبت ببعضهم الى التفكير بانشاء شعر منظم الانغام يشبه العزف الموسيقي بمصاحبة الالات مختارين لذلك من الالفاظ اوسعها رنيناً واغناها احلاماً، فتشير الى اشياء هي في الظاهر غريبة عن الموضوع ولكنها تدل على صلات خفية تربط هذا الموضوع بموضوعات اخرى اعم ، اي انهم ارادوا ان يغمر الموضوع في جو موسيقي وفلسفي مما يبعد صداه ويطيل مداه .

وبديه ان تتوقهم هذه المحاولات الجريئة الى الحرية في التركيب والانعتاق من قيود الوزن والقافية والنحو واللغة، فاقتربوا بذلك من الشعر الانكليزي . فالرمزية من حيث التصور المانية، ومن حيث المبدأ الانساني روسية، ومن حيث الروح وحرية التركيب انكليزية .

كيف تجمعت هذه الابخرة المختلفة المصادر فتحولت في سماء الخيال الى قطرات رمزية ؟

كان ذلك بفضل اثنين من الشعراء يحق لنا ان نضعهما في طليعة السابقين المبشرين بهذا المذهب : سانت باف وبودلير . اما سانت باف فكان يقول ان الغاية من الفن ان يبعث في نفس القارىء انفعالا بالجمال وهذا الانفعال يفتح المجال لانفعالات اخرى ايحائية . وتأييداً لقوله يعود الى فكرة ديدرو التي سبق ان اشرت اليها وتوسعت فيها عند كلامي عن التحديد في الشعر، فان مصادر الالهام لاتنحصر عند الشاعر في الوقائع التي تجري حوله، بل هناك من مرئيات الوجود ما لا نوليه عادة اهتماماً مع ان كلا منها كما قال ديدرو يستطيع ان يقود الفكر الى مالانهاية له من الاشياء .

خذ اللون الاصفر مثلا فهو يذكرنا بالذهب، ويذكرنا بالحرير، ويذكرنا بالمرارة . واذا تغلغلنا فيه وجدناه لون الغضب والخوف والحسد والهموم . والشمس عند غروبها تصفر من الم الفراق، وقد يقبض المجنون على خيط من القش اللامع فيحسبه شعاع الشمس، ولا بد من نقطة يلتقي عندها الشاعر والمجنون :

يا صاحبي تقصيا نظريكما	تريا وجوه الارض كيف تصور
تريا نهاراً مشمساً قد زانه	زهر الربى فكأنما هو مقمر

وقال آخر في الارض ايضاً :

يا لسحر حملته في جبيني	من ربيع الامال والايام
وعناق السماء في زرقة الـ	بحر وفي خضرة الشعاع النامي

فالاول رأى الزهر فخاله شعاعاً والثاني رأى الشعاع فخاله زهراً .

وهكذا القول في سائر الاشياء التي يقع عليها نظر الشاعر : خذ النجمة مثلا ، فقد تراها مقلة :

ليل المحبين هل هذي عيونهم	ناموا فاطلعتها في الليل اقمارا

وقد تراها دمعة :

انت تبكين يا نجوم ..

وقد تراها شمعة :

والليل في صمته الرهيب	كراهب يحمل الشموع

وقد تراها فماً او دماً .

واذا تماديت في الخيال حسبتها سيفاً :

اين من يعشق النجوم غضابا

وعلى هذا النحو نظم سانت باف قصيدته المشهورة « الاشعة الصفراء » التي اثارت كثيراً من النقد اللاذع ، وموضوعها ان الشاعر جلس يوماً كان يوم احد، الى نافذته يراقب المارة، فكانت الاشعة الصفراء التي يرسلها الشفق اكثر اصفراراً ذلك المساء من سائر ايام الاسبوع فتصبغ ستائره البيضاء ... ثم تمر بخاطره ذكريات الصبا وترانيم الكنيسة فكان لهيب المصباح اصفر ، واصفر ايضاً لهيب الشموع ، والضياء الزالج على جبين العذارى المقنع يحيل بياضهن الى اصفرار ... وبعد ان تذكر وفاة عمة له انتهى برؤيا العزلة التي تنتظر الشاعر بعد موته : « ابداً لن يصفر الورد على قبري . »

تلك نظرية سانت بوف دعمها بالمثال فجاءت بجرثومة لفن شعري جديد .

هذا الفن الشعري الجديد قدر لبودلير ان يرسم سطوره ويضع دستوره كما سترون في مقال آخر .

نقولا فياض

ارض الميعاد

◆

هبة الحب ، يا شعاع رؤايا وطريق السماء في مغنايا

رعشة انت في عروقي ووحي في دمي والنجيّ من نجوايا

انت ارض الميعاد ما سمح الله بها او بمثلها لسوايا

غمر المنّ من سمائك صحرائي وفجّرت كوثراً من هوايا

فاطمأنّ الصباح الاخضر في عيني وطابت على اديمي العشايا

وجرى الشعر من دمي ، وإماء ما اغيري من القيان سبايا

يا سنا الحب، يا سنا الله، ما احرقت ناري الا لينقى سنايا

كان لي في الغرام قلب بغيٌّ وعيون على الجمال بغايا

حين مرّت على جبيني يداها واستحمّت في عينها عينايا

وتلاشى لهاثها في جوى قلبي تلاشت عليه تلك الخطايا

الياس ابو شبكة

العنصرية والاستعمار الايطالي

بقلم قدري قلعجي
رئيس تحرير مجلة « الطريق »

ان التاريخ الانساني ، واعني بـه أيضاً التاريخ غير المكتوب والذي نسميه عادة تاريخ القبائل البدائية ، ليس سوى حلقات متصلة من الغزو والحرب والهجرة : هو تصادم بين الجماعـات يفضي الى اتصالها وكثيراً ما ينتهي بتآلفها . ومنذ بدأت المدنية سيرها المطرد ، والنضال الاجتماعي والاممي يمزج الجماعات الصغيرة فيجعل منها جماعات اكبر ، فالجماعات الانسانية متجهة الى مجرى واحد كاتجاه الجداول الى النهر ، واتجاه الانهر الى البحر الكبير . ومهما كانت اسباب الاندماج ودواعيه بعيدة عن هذه الغاية ، فهو القاعدة التي سادت عليها البشرية ، واختلاط الدماء هو الذي ولّد الشعوب الحديثة . ويؤكد علماء السلالات ان العروق النقية قد تلاشت قبل المرحلة التاريخية المعروفة (راجع ليستر وميلو في كتاب « الاجنـاس البشرية » ص ٢٠٧) .

ولم يعرف التاريخ فيما عرف من الشعوب ، شعباً زعم انه انقى دماً واوفى جنساً من بقية الشعوب وجعل هذا الزعم اساساً يصدر عنه في كل ما يقول وما يعمل . فما لهذه البدعة العنصرية تغدو في العصر الحديث ، عصر الدعوة المكافحة الى المساواة بين الطبقـات والشعوب ، عنواناً لنهج في التفكير ، واساساً لنزعة في السياسة ، نسميها النازية او الفاشستية او غير ذلك من الاسماء الدالة على الغلو في الرجعية والانانية والارهاب ؟

قوام العنصرية في رأيي هو الاستعمار . انه الاساس الذي قامت عليه ، والهدف الذي تسعى اليه ، والباعث على تمسك قادة المانيا وايطاليا بها واعتمادها كنظرية علمية لا يدخلها الباطل ولا يدحضها الواقع الملموس .

ونحن اذا عدنا الى التاريخ القريب رأينا ان الرأي العام الايطالي ، كان يجري مع الرأي العالمي الســائر نحو التحرر من قيود التعصب الجنسي ، وكان عدد الخلاسيين (وهم الذين يولد احدهم من ابوين مختلفي العرق او الجنس) آخذاً في الازدياد منذ سنـة ١٨٨٥ في الممتلكات الايطالية في افريقيا . بيد ان هـذا الازدياد المستمر احدث بعد الحرب بعض القلق ، فاقترح الاب جيني في سنة ١٩١٩ منع التزاوج بين الاوروبيين والشعوب الملونة ، الا ان اقتراحه لم يترك سوى صدى ضعيف انحصر في الاوساط الاستعمارية ، وقام بعده الاب مورو سنة ١٩٢١ ينصح الاوربيين الذين استولدوا نساء من المستعمرات ان يتزوجوهن . ثم طلب المؤتمر الثالث ضد الرق المنعقد في روما ، من الحكومة ان تمنح الخلاسيين الجنسية الايطاليـة . لكن استيلاء الفاشيست على الحكم قضى فجأة على هذه النزعات التقدمية ، وبعث آراء جيني بشكل مسرحي قوامه التهويل وتشويه الحقائق العلمية . وما زالت هذه الموجة الرجعية تطغى وتستبد ، حتى وقف المؤتمر الرابع ضد الرق المنعقد في سنة ١٩٣٦ ، ينكر مبادءه السابقة ويدعو للقضاء على الخلاسيين ، واعتبار الشعوب الملونة شعوبا منحطة ينبغي ان يضرب حولها نطاق لا تتعداه لئلا تفسد بدمائها الملونة دماء الشعوب الاوربية النقية .

على هذا النهج الاستبدادي ، وعلى حجج فارغة مزينة بزخرف البيان وبهرج البلاغة ، رددت الصحف الفاشستية نغمـة « الجنس السامي والجنس المنحط » و « الدم الصافي والدم الملوث » !

لنسمع كاتباً اختصاصياً من محرري مجلة La Rivisa delle colonie هو م . ديل مونته يحدثنا عن هذه البدعة :

يزعم ديل مونته ان الاختلاط بين الاوربيين وسكان البلاد المستعمرة ، يمر بمراحل اربع : ١- تطغى الحاجة الجسمية أبان الفتح على شعور الاوربي وكرامته الوطنية ، فلا يأنف من الاتصال بنساء البلاد المغزوة ، في سوانح الفراغ من المعارك الداميـة ٢- اذا اتصل الاوربي بنساء البلاد المستعمرة يتعلق بهن بدافع العاطفـة الهيدونية (والهيدونية في الفلسفة مذهب يجعل من اللذة هـدف الحياة الاول) ٣- قد يصاب الاوربي بالفساد الخلقي والتفسخ العنصري فيؤثر نساء الشعوب الملونة على نساء وطنه وعرقه . ٤- اما الفصل الاخير من هذه الرواية المؤثرة ، فهو زواج الاوربي باحدى هؤلاء النساء ، وفيه تموت الكرامة الوطنية ويتلاشى شعور الاوربي بانه منحدر من جنس سام ممتاز !

واذ جلا ديل مونته هذه اللوحة ، شرع بتعداد الاسبـاب « العلمية » التي يرى انها تبرر التعصب الجنسي . وانتم لا تستطيعون الا ان تدهشوا لتفاهة بل لسخافة هذه الاسباب : يبدأ صاحبنـا بالاعتراف بما كان لاختلاط الاجنـاس من اثر كبير في تقدم البشرية ، اذ ساعد على تشكيل اجناس جديدة ، وجدد شبـاب الاجناس التي شاخت وجنحت الى الانحطاط . ثم يستدرك فيقول : « على ان هذا الامر لا يمكن ان يتخذ قاعدة عامة » فقد يكون التوالد بين الاجناس المختلفة نافعاً كما حدث بين البيض والهنود الاميركيين

الذي انجب اختلاطهما الشعوب الاميركية الراقية ، وقد يكون مضراً كاختلاط البيض والماليزيين . ويكون احياناً مشكوكاً في نفعه او ضرره كاختلاط الايطاليين بالاحباش . ولا ندري حتى الآن : هل يرجع سبب هذا التباين في نتيجة الاختلاط الى عوامل بيولوجية خاصة بالاجناس التي يحدث التزاوج بينها، ام الى عوامل فردية او اجتماعية .»

هذا كل ما يقوله ديل مونته عن العنصرية . وهذه هي الاسس «العلمية» التي اعتمدت عليها وزارة ليسونا اذ اصدرت في كانون الثاني ١٩٣٧ قانونها الشهير الذي اعتبرت فيه الشعوب الملونة قطعاناً من السائمة يجب ان تخضع دائماً لنير الاستعباد . ولا حاجة الى القول بان تلك الاسباب (المشكوك في نفعها او ضررها) لا تبرر ما اقترفت ايطاليا باسمها من الجرائم في الحبشة والاريتريه وطرابلس الغرب .

ان الحرب الفكرية التي اعلنتها الجمعيات العرقية في ايطاليا على الشعوب الضعيفة ، مقدمة لحروبها الاستعمارية ، لم تستند الا على هذا النوع من البراهين . وكثيراً ما كانت تعمد الى التدجيل العلمي فيقول Rassegno d'Attramare : « يؤكد علماء الاجناس (كذا) ان الاوربي يختلف عن الافريقي والاسيوي ، كما يختلف الانسان عن القرود » وتعلن جريدة l'Azion Colonial : « ان للامتياز العرقي اسساً علمية قوية . ومن الاجرام الاعتقاد بان اختلاط الاجناس يمكن ان يكون عاملاً من عوامل السلام ، لان هذه النظارية تناقض ابسط القوانين البيولوجية » . ويعلن الوزير ليسونا بلهجة عالم مقتنع ، هذه القواعد الرئيسية للاستعمار الجديد : «١—ان استعمار الشعوب الراقية للشعوب المنحطة يخدم المدنية خدمة كبرى . ٢ — لكي يقوم الاستعمار بمهمته الحقيقية ينبغي ان يكون سداً في وجه الشعوب المستعمرة ومانعاً لها من الانتشار في العالم . ٣ — يجب التفريق التام بين الجنس المستعمر والجنس المستعمَر . ٤ — يجب ان يرجح جانب الايطاليين في جميع المعاملات وجميع الحالات على جانب سكان المستعمرات ، والهفوة التي تغتفر لاولئك يجب ان يعاقب عليها هؤلاء بالموت .» (راجع عدد ٩ كانون الثاني من صحيفة Politica derazza stampa) .

وبعد ، لم هذا الغلو في التعصب الجنسي والحقد على سكان المستعمرات ، والحرص على عدم الاختلاط بهم ؟ قلت في مطلع هذا المقال ان قوام العنصرية هو الاستعمار ، واكرر هنا ان التفرقة بين الاجناس ليست الا ذريعة للاستعمار او وسيلة لتأييد سلطة المستعمر .

ان ايطاليا التي واجهت في مستعمراتها معضلة جديدة ، سببها نشوء عرق خلاسي جديد ، نتيجة لتزاوج الايطاليين وسكان المستعمرات ، لم يكن لديها ما تتسلح به لمحاربة الخطر الذي يهدد سلطتها في هذه البلاد سوى العنصرية الجامحة .

في مجتمع منشطر الى طائفتين ، حاكمة ومحكومة، تفصل بينهما هوة العنصرية ، تكون الضمانة اوفى لبقاء السلطة في يد « العرق » المسلّم برقيه ، ودوام خضوع « العرق » المسلّم بانحطاطه . اما اذا نشأ بين الطائفتين عرق جديد مولّد ، فان الطبقة الحاكمة تواجه المشكلة التي واجهها الاستعمار الايطالي في افريقيا بعد الحرب الكبرى الماضية ، اذ هب الخلاسيون يطالبون المستعمرين بالمساواة المدنية والاقتصادية ، فوقف هؤلاء حائرين بين ان ينكروا على الخلاسيين المساواة التي يطلبون، فيثيروا سخط الشعوب المحكومة، او ان يعترفوا لهم بهذا الحق فيستثيروا نزوعها الى الانعتاق وطموحها الى الصعود .

فلم يجد المستعمرون خيراً من ان يلوذوا بنظرية عنصرية يثيرون بها حقد الجنس، ويقتلون نوازع الوجدان، ويبررون باسم العلم ما يقترفون من آثام . ثم غالوا في سياستهم العنصرية الاستعمارية ، فاجلوا سكان البلاد الخاضعة لهم من السهول الخصبة فيها الى الجبال والصحارى . في طرابلس الغرب مثلا، اعترفت البلاغات الايطالية الرسمية في سنة ١٩٣٠ بان الحكومة نقلت في هذه السنة وحدها ، ثمانين الف عربي ، من اراضي الجبل الاخضر، وهي أخصب المناطق واطيبها مناخاً واغزرها مياهاً واكثرها عمراناً ، الى صحراء سرت القاحلة . وقد ابدت الجرائد الفاشستية ارتياحاً لهذا العمل، وشجعت الحكومة على المضي في هذا النهج . ولما انتقدت الجرائد الاجنبية ولا سيما جرائد فرنسا اليسارية هذه الطريقة الاستعمارية ، كتبت صحيفة « جورنالي ديطاليا » : « ان سياسة ايطاليا الاستعمارية هي سياسة انسانية لكنها لا تعرف الضعف ! » .

ولم تقتصر هذه « السياسة الانسانية » على اجلاء السكان من المناطق الخصبة في بلادهم، بل عملت على ابادتهم بجميع الوسائل الممكنة . وقد أسفر الاحصاء الذي قام به الجنرال غراتسياني في سنة ١٩٣٠ عن نقص مخيف في عدد السكان بلغ ٨٢٠٩٢٨ نسمة من اصل مليون ونصف المليون . (راجع الصفحة ٤٤ وما بعدها من كتاب « الفظائع السود الحمراء والتمدين بالحديد والنار » والصفحة ٦٤ وما بعدها من كتاب « حاضر العالم الاسلامي » ، ومقال الكاتب الفاشستي برتولي زاني في صحيفة l'Azion colonial العدد الثالث سنة ١٩٣٦) .

قدري قلعجي

الكتاب

بقلم الدكتور شارل مالك
استاذ الفلسفة في جامعة بيروت الاميركية

●

الكتاب من اهم المؤسسات العمرانية ، فلا نستطيع ان نتصور مدنية لم تنتج كتباً فذة ، ولم تنهض من الناحية الفكرية الروحية ، بل من الناحية الكيانية على الاطلاق ، على كتب خاصة . فهوميروس عند اليونان ، والتوراة عند اليهود ، والقرآن عند العرب ، والكتاب المقدس في الحضارة المسيحية المتوسطة ، جميع هذه الكتب عبرت عن حضارات مختلفة ، وساهمت في تثبيت ونشر تلك الحضارات .

نمتاز عن الحيوانات البكم بهذا العقل الذي نفكر به . فمتى حاولنا نقل ما في عقولنا الى غيرنا في تفاعل اجتماعي حي ، اصبح العقل نطقاً . اما الكتاب فهو على العموم تدوين ثابت لنطقنا العاقل بقصد نشره في المكان والزمان . وهكذا يكون الكتاب سجلاً اميناً لاخص خصائصنا البشرية ، اعني لعقلنا الناطق .

واذا احببنا الدخول في صميم مدينة من المدينات فخير وسيلة لذلك ان نتفحص الكتب التي صبت تلك المدينة اختبارها وعقلها فيها . العقل في بدايته شيء وجداني داخلي ، ومتى اصبح نطقاً مدوناً خرج عن فرديته الداخلية الى مسرح التاريخ العام وصار بوسع كل انسان ان ينظر فيه وينتقده ويحكم له او عليه . من هنا نرى ان الكتاب اخطر المنتوجات البشرية على الاطلاق ، والكاتب اشد الناس مسؤولية في ما يعمل . فالتاريخ واقف له بالمرصاد ، فان كان قد تصارع مع الحقيقة وعبر عنها تعبيراً صادقاً اميناً ، صفقت له الاجيال واستنارت بنوره . اما اذا نفذ بعقله الى قشور الاشياء فحسب فلن يرحمه الزمن في الحكم المطلق الذي سيلفظه عليه . فالتاريخ كما قال هيجل « محكمة العالم . »

ومع ان العرب احترموا الكتاب في عصرهم الذهبي ايما احترام – كما يشهد بذلك هذه الخزانة العربية الغاصة بالكتب والرسائل ، وعبارة « اهل الكتاب » التي اطلقوها بشيء من الاجلال على المحافظين على التراث النبوي – فاشك ان للكتاب اليوم الحرمة الوافية في هذا البلد . واذا عددت مشاكلنا الاساسية اضع مشكلة الكتاب في طليعتها ، لانها مفتاح لسلسلة من المشاكل تقع تحتها . وهذه المشكلة تتألف من عناصر اربعة :

العنصر الاول : ان حياتنا القرائية تكاد تكون عدماً . فالشباب الذي يغرف ملء نفسه من الادب الاصيل ، الشباب الذي همه الاول ان يثقف روحه بقراءة الروائع الكبرى ، هذا الشباب نادر جداً عندنا . فنحن لم نتعود عادة القراءة ، اعني لم نبن فينا تلك اللذة الشخصية التي تتعطش الى مجالسة جبابرة الكتب ومناضلتها ساعات من النهار في انعزال كامل . فمن اول ما يلاحظه الغربي الزائر لبلادنا هذا الكسل والخمول الفاضحان اللذان يدفعان بافواج منا الى المقاهي حيث يقتلون الوقت ، وبافواج آخر الى نوع من الثرثرة الكلامية الرخوة التي تنطمهم مع الزمن عن اي مطاب رفيع . العودة الهنيئة الى الكتاب ، التمتع العميق بقراءة الروائع ، الانفراد الشخصي الباذل مع الفكر المكتوب المسؤول ، هذه الخصال لا اظنها راسخة في هذه البلاد .

والعنصر الثاني من مشكلة الكتاب هو انه متى عودنا انفسنا على مجالسة الكتاب فلا نقرأ في الغالب الا الادب الرخيص . اما المهيج اما لعاطفتنا الشهوانية او لخيالنا الجامح او لفضولنا غير المسؤول ، سلوا بائعي الكتب فيجيبوكم ان نوعاً خاصاً من الروايات هو الرائج هذه الايام . واذا فحصتم هذه الروايات وجدتموها من احط الانواع التي يسف بها العقل والروح على السواء الى حضيض الخطاطي قلما يستطيع الانسان ان ينهض منه . والبعض منا لم يقرأ في حياته سوى كتب الدراسة فمنذ ترك دور العلم ظن ان ثقافته قد اكتملت ، فراح ينشر في الارض حكمه الغالية ، مع ان هذه الكتب لم يقصد بها الا صقل اداتنا الفكرية صقلاً ابتدائياً يمكننا ، بعد ترك المدرسة ، من الشروع الجدي في تثقيف انفسنا على يد روائع الفكر البشري الخالدة ، هذه الروائع التي تنضجنا الى « كيان » كئيب يعي المشاكل الاخيرة بفرح لا يوصف . وبعض آخر يجمع ثقافته من صفحات الجرائد والمجلات ، مع انه لم يسمع بعد ان الصحافة الدورية ساهمت في خلق فكرة خالدة واحدة . ولا احسب هذا قدحاً في الصحافة ، لان مبدأها من اساسه قائم على غير الخلود ، اعني على ما يجد ويحدث ، والحادث الجديد شيء

والقديم الازلي شيء آخر . وقد ابتلي معظم شبابنا بهذه الثقافة الصحافيه الاخبارية فراحوا يعيدون كل ما هو طريف مهيج ، واختفت عن ابصارهم جميع ابعاد الحياة واعماقها . اما الذين يجالسون الراديو دون الكتاب الرائع ساعات في النهار فيكتسبون مع الزمن مرضاً عصبياً يقعدهم عن تقدير اي شيء روحي عميق . الكتاب الرائع لا ينوب منابه شيء في الوجود . رسالته تظل ثابتة الى الابد ، لان صاحبه رأى وأحب واستجاب الى شيء خالد ، به نصارع العقول الجبارة ، ومن صارع عقلاً استوى على مرتبته ، على مرتبة العقل الجبار ننعم برؤى اخاذة لا يسمح الا لانصاف الالهة بان يروها .

وهذا يقودني الى العنصر الثالث من مشكلة الكتاب : ان اللغة العربية ، بالمقابلة مع اللغات الحية الاخرى ، لتفتقر الى ادب اساسي تبني عليه حياتنا الفكرية الجديدة . واذا حصرت مقابلتي في لغات اوربية ثلاث ، اعني الانكليزية والافرنسية والالمانية استطيع ان اعدد عشرات السلاسل من الكتب ، كل واحدة تضم مئات الروائع مطبوعة طبعاً انيقاً مضبوطاً رخيصاً يرغب المرء في اقتنائه وقراءته . وهكذا يوسع الاوربي المثقف ان يملأ مكتبته بمئات التآليف الكلاسيكية وينهل منها على انفراد في ساعات فراغه . واذا اوجدنا في لغتنا سلسلة من مئة كتاب كلاسيكي — كمكتبة Classical Library باللغة الانكليزية ومكتبة L'évolution de l'Humanité باللغة الافرنسية ومكتبة Onsel باللغة الالمانية — وطبعناها طبعاً شائقاً حديثاً ، واشرفت على نشرها هيئة مسؤولة من العلماء والمفكرين ، تخلق في نفوس الناطقين بالضاد قبل نهاية القرن العشرين اكبر واعمق ثورة فكرية عرفوها في تاريخهم . اما الان فتوجد في هذه البلاد منافسة عنيفة بين اللغة العربية واللغات الاوربية ، وبعض اسباب هذه المنافسة يعود الى ان عقل الطالب المتعطش لا يجد مع الاسف في اللغة العربية ما يروي به غليله . واذا استمرت الحال على ما هي عليه وتعسر على الشاب العربي ان يجد في لغته ما يستطيع بسهولة ان يجده في اللغات الاوربية ، فلا اتطلع بارتياح متفائل الى مستقبل اللغة العربية . لا تحفظ اللغة الا اذا اتسعت نفوس ابنائها الى الكيانات السامية في التاريخ . عندئذ تتطلب هذه النفوس الادب الكلاسيكي الخالد بحب طاهر لا يشوبه ظل رجعية او فساد . وتعساً للنفس تعشق النور ولا تجده .

والعنصر الرابع هو ان جو البيت عندنا لا يشوق كثيراً الى المطالعة والدرس . فثمت مؤسسة داخل البيت لم نعرفها بعد المعرفة الكافية ، ولم ندمجها في صلب حياتنا العائلية . هذه المؤسسة هي المكتبة البيتية الخاصة ، ذلك الهيكل الفكري القدوس الذي نستطيع ان نتعبد فيه كلما طغى شيطان الضجر الكياني علينا . فالبيوت التي تعنى بمكتباتها الخصوصية وتفتحها امام اولادها الناشئين في ارشاد روحي صاف خلاق ، هذه البيوت نادرة جداً في العالم العربي ، ان لم تكن معدومة على الاطلاق ؛ وهذا الجو الروحي لا يخلق في هذه البلاد الا متى انتظمت العائلة عندنا ، لا حول مبدأ الغرائز الطبيعية الجسدية فحسب ، بل ايضاً حول المبدأ المميز للانسان عن الحيوان ، اعني حول عقله وروحه . وبما ان العقل الاصيل النابض المتراكم يعصر معناه في تلك القطرات الخطيرة التي نسميها كتباً ، تصبح المكتبة البيتية محراباً مقدساً تقيمه العائلة في وسطها تسبيحاً لاقوى قوة في الانسان ، لعقله الناطق الفاصل بينه وبين الحيوان ، الجامع بينه وبين الله . وكل عائلة تعنى فقط بالترتيبات الجسدية المحضة ولا تهتم ببناء مكتبة شخصية تتمركز فيها حياتها الروحية تجحد أقدس امانة تسلمتها من الله . والجاحد الكافر بهذه الشؤون المتعالية يعاقب هو واولاده وامته عقاباً اكيداً . فمشكلة الكتاب اذن لا تقتصر عندنا على كسلنا الطبيعي ، ولا على ميلنا الفطري الى قراءة الادب الرخيص ، ولا على افتقارنا في اللغة العربية الى الادب الرفيع — مشكلة الكتاب تتعدى هذه الحقائق الاليمة الى وضع قد يكون اشد ايلاماً منها كلها ، اعني الى وضع البيت ، اس الحياة الاجتماعية كلها . فمشاكلنا الاخيرة من التماسك الوثيق بحيث اذا هززنا مشكلة منها اهتزت لها جميع المشاكل الاخرى . فلو كنا اكثر البشر اجتهاداً وكنا لا نقرأ ولا نحب ان نقرأ الا الكتب العالية وكانت مع ذلك حياتنا العائلية فاسدة من اساسها ، لبقيت قوة القراءة كامنة فينا ان لم تقتل مع الزمن على الاطلاق . فما لم تنقلب حياتنا العائلية من الاساس الجسدي القائمة عليه الان الى اساس روحي جديد لا يزدري الجسد ، بل يضعه تحت العقل والكيان الروحي الاسمى ، وما لم نكرس هذا الانقلاب بشيء حسي موضوعي ، اعني بتنصيب المكتبة البيتية في وسط العائلة لن تدخل مؤسسة الكتاب في دورة حياتنا دخولها الحي الفعال في دورة حياة الامم الراقية . وهذا يعني انحطاطاً روحياً دائماً لا قيام البتة لاي شعب او امة عليه .

شارل مالك

الحركة الفكرية في النمسا

كان زوال النمسا كدولة مستقلة كارثة تاريخية وسياسية وانسانية والمانية في آن واحد · فالنمسا كانت تمثل ذلك الشكل الجرماني الملطف بما اكتسبه من المؤثرات الجنوبية والشرقية والسلافية ، الكاثوليكي المتصف بالتساهل ورقة الطبع وسهولة الخلق والتهذيب والثقافة وبهجة الفنون والاداب ، والاقدر من العصائب المتارية على تذوق الفكرة الالمانية الصحيحة ، واداب القرنين الثامن عشر والتاسع عشر · وبديهي ان زوال النمسا أفسح لالمانيا العسكرية السبيل الى بسط نفوذها بدون رادع فكانت الحرب ، وهي من عناصر القوى الروحية في المانيا ، وكانت شهوة الغزو عن طريق الارهاب ·

ولقد بذل اساتذة برلين كل ما في وسعهم لحمل الناس على الاعتقاد بان الادب النمسوي ليس سوى مقاطعة للادب الالماني في الريخ · والواقع ان الادب النمسوي ابعد ما يكون عن الادب الالماني بدليل تأثره بالثقافة اللاتينية التي أغلق دونها جرمانيو الشمال افكارهم وارواحهم · ومن الامور المسلم بها ان وحدة اللغة لا تعني وحدة الادب فالادبان الانكليزي والاميركاني ليسا ادباً واحداً والا لوجب علينا ان نقول ان القصصي السويسراني كارل سبيتلر الماني لانه كتب قصته الرائعة «الربيع الاولمبي» باللغة الالمانية · واذا قلنا ان غريلبارزر ولينو وسنيترلر هم ادباء المانيون لا شعراء نمسويون نكون قد جهلنا كل ما عمله التاريخ من حيث الحضارة والفكرة والفن طوال مئة وخمس وعشرين سنة ، اي منذ تأسيس الامبراطورية النمسوية ·

سوى ان السياسة الالمانية بدأت في العشر السنوات التي تقدمت الحرب الحاضرة بتحويل الادب النمسوي عن تقاليده · وكان فون بابن ، وزير الريخ المفوض في فيينا وقتئذ ، من اشد العاملين في هذه السياسة · وان يكن ثمة اسماء خطيرة تنتسب الى الثلث الاخير من عهد فرانسوى جوزف بقيت حتى الانشلوس مسموعة الرأي كهوغو دفمنستال مثلا ، وقد يرجع ذلك الى القوام المسيحي الذي يتصف به جزء من مسرحياته ، فقد خسف الضغط ادب القسم الاكبر من ادباء النمسا كشنيتزلر وهرمن وبيتر التنبرغ وبيرهوفمان ·

ومما لا شك فيه ان هذا التحول هو نتيجة الاتجاهات السياسية الناشئة عن العنصرية وعن موجة اللاسامية في شكلها المتاري الحاد · وهذه الاتجاهات عرفت كيف تستثمرها جميع القوى العاملة في خدمة الصليب المعقوف · فقبل الانشلوس بسنوات اخذ الحزب الوطني الاشتراكي في المانيا يراقب اسواق الكتب النمسوية في الريخ ليكره الادباء والناشرين النمسويين على البحث عن معاشهم ·· وما ان تقرر الاضراب عن شراء المؤلفات اليهودية حتى فترت حركة الاقبال على أشهر ادباء اليهود ، وفي طليعة هؤلاء الاخيرين العالم العبقري سيغموند فرويد الذي يتمتع بشهرة عريضة في المقامات الفرنسية والانكلوسكسونية وفي سائر العالم · وقد اثبت انقطاع فيينا عن فرويد ان لا نبي يكرم في بلده · وفي عداد الادباء اليهود الذين قدر لمؤلفاتهم رواج عظيم في باريس ولندن ستيفن زويغ فقد اكره هذا الاديب على مغادرة سالزبورغ عندما حذف اسمه من مختصر تاريخ الاداب المخصص لشباب المدارس ·

كانت فيينا ، عاصمة الامبراطورية الرومانية الجرمانية طوال قرون ، تجذب اليها وتستقبل الصفوة الاوربية التي حملت اليها نفوذ الاداب الفرنسية والايطالية وغيرها · وما بقي من هذا المزيج في الثقافة النمسوية وتقاليدها التي ما يبرح فيها عرق من الحياة ينفي العنصرية نفياً لا نزاع فيه · ومما لا شك فيه ان للنمسا ثلاث قوى كبرى تصون بها روحها هي الوفاء للذكريات العظمى التي يجهلها او يتجاهلها الوراث البرلينيون للنزاع القديم الذي قام لاجل السيطرة بين النمسويين والبروسيانيين ، والشعور الانساني الذي تتصف به الطبقات المثقفة ، والايمان الكاثوليكي المرتبط ارتباطاً وثيقاً بالروح الوطني وهو من اشد عوامل المقاومة للوثنية الجديدة في الريخ الثالث ·

ومما يضمن صيانة الفكرة النمسوية القديمة ان الادب النمسوي انتقل من العاصمة الى الارياف واصبح اقليمياً ، وان الكلمة المسموعة هي للشعراء والناثرين التيرولين والكارنثيين والستيريين اي لادباء النمسا العليا والسفلى كبيلنجر ولندز وستروتز ورودلف لزت وكرامر وهنريك سوزو والدك وغيرهم ·

وصفوة القول ان الادب النمسوي المعاصر يبدو لمن ينظر اليه نظرة عارضة كأنه قد حال عن عهده الاول : والواقع ان هذا الادب ما يزال ممثلا بالكتاب والشعراء الذين عاشوا في العام ١٩٠٠ وبالذين تحدروا منهم ، اي بوراث ذلك العهد الثقافي الذي اشرب في روحه الانطلاق والحرية · وقد مثل العنصر السامي في هذا الادب دوراً من الاهمية على جانب عظيم بشهادة اسماء خطيرة كأرثور سنيتزلر وبيرهوفمان وفرانز ورفل ·

واذا نحن عاينا الحركة الادبية في النمسا عن كثب اتضح لنا ان ثمة ادباً اقليمياً يمد جذوره في الارياف وان هذا الادب يقوم على تقاليده المأثورة عن اطيب عناصر الروح النمسوي · واتضح لنا اخيراً ان ادب النمسا يعيش اليوم في فترة تريث وانتظار ··

المثال والحجر

بقلم صلاح الاسير

— حجرة مسحورة — والشمس بعد قطع الغمام
في موكب الارجوان الشفقي —

المثال — ستلين ايها الحجر ، فهذا الازميل ذو الرأس الحاد ، يعرف كيف يخط الحياة ... الحياة خطوط لا ازميل لها .

الحجر — كنت في كنف الارض ، دافيء الجنبات ، توسوس بي جنبات الظلام ، كنت في عالم لا يعرف ظلا ...

المثال — يخيفك الظل ؟..

الحجر — الظل نذير انهيار كل كائن قائم .

المثال — انت وانا ، نغمتان في نشيد الدنيا .. نحن اصداء .

الحجر — اصداء تكوين مرعب ، ترتعد من ذكراه ذوآبة جبلي الابيض .

المثال — في جعـدة النغم الازلي اضواء وظلال ... ثمة لا تتلاقى فلذة بفلذة الا على وجد .

الحجر — تعني ... اننا على موعد ؟

المثال — اف .. لا تستعجل مأساة وجودك ، فاذا عرفتهـا الان ، فما الذي ستسمعه من الازميل ؟..

الحجر ، تعلو وجهه غبرة مرتجلة كأنهـا يواقيت الدموع — انت بدوني ماذا ؟..

المثال — أحجر وكبرياء ؟

الحجر — الظل دائماً ، والظل ابداً ...

المثال — خاطر لم يتجسد ، وينطوي على نفسه في الظل .

الحجر — تلك فلسفة تائهة لم تستقر .

المثال — ولن ...

الحجر — احس كف الشمس في الضلوع تبحث عن شيء ضائع .

المثال — وهذه الشقوق ؟..

الحجر — سراديب تنضح تاريخاً ...

المثال — ما لونك ؟..

الحجر — الحرمان .

المثال — رأيتك في اثينا على صورة « فينوس » .

الحجر — أكنت اوديسيوس يومئذ ؟..

المثال — بل انا خالق « مينرفا » .

الحجر — جواب آخر عجيب .

المثال — طوفت بك اربعين قرناً ، وادّعيك ... انت تماثيل عصفت بها زوابع مجنونة ... فتكتلت وعادت حجراً .

الحجر — حكاية قديمة . انت من التراب والى التراب تعود .

المثال ، يحدق في الحجر بحجرين اخضرين كالنجوى — انت عنوان عالم يعيش بك ، انت فهرس ناطق لعالم اخرس ...

(تباشير فجر يمد يده الرمادية ليخط آية النهار)

الحجر — في شوق وانت تلوي عليّ ، الى تقبيل اناملك .. أين الازميل ؟..

المثال — عاودك الحنين ، وتفتحت كل خلية في جسدك البارد وعدت حاراً ...

الحجر — طريق سنقطعها معاً .

المثال — وقد يكملك ازميل آخر .

الحجر — ازميل واحد ... وتتغير اليد ... أعني الشعلة .

المثال — اراك ترقص للشمس ... كأمرأة غضة الرواء ، تنقل رجليها الصغيرتين على قمم امواج حمراء .

الحجر — احب الشمس .

المثال — الشمس عدو ودود .. تحب دوماً يا حجر مالا احب .

الحجر — امرأة على قمم الامواج ؟

المثال — امرأة ، ثم ماذا ؟..

الحجر — ولن ترى الشاطىء ...

المثال — امرأة ، ثم ماذا ؟..

الحجر — ولن ترى الشاطيء ...

المثال — لا شاطيء حيث انت امرأة .

الحجر — المرأة اغوار ... لا شاطيء لامرأة .

المثال — لم يتغير صوتك ، فهـذا الجرس الابح حبيب اليّ ، وعلى صفوة جانبك الايسر تهاويل باهتة تبكي ..

الحجر — هـذا الجانب كان يستقبل الشمس وهي آتية من الشرق ...

المثال — الشمس المقبلة من كهوف الصين واساطير الهنـد ، حيث تتدلى حبال النور كالافاعي ... وتفح ... فاذا لمست جنبك الايسر غمرك العشق المشرقي .

الحجر — هات الازميل .

المثال — كل ما بك يغري ... قل لي متى تنسى ؟.. ويومئذ

يأتي اليك الازميل طائراً ...

الحجر – انسى ؟

المثال – تنسى ما كنت وما تكون ...

الحجر – هب لي حيرة واحدة .

المثال – وتنفذ الى يقين .

الحجر – افتراض آخر رخيص .

المثال – ليتك لا تعي مرة واحدة .

الحجر – فاغدو امرأة من جديد .

المثال ، كالمخاطب نفسه – سأصلبه مرة ثانية ... انه يحس بذلك .

الحجر – في عينيك هاتين ارى وجهي المستطيل ، وشعري المرسل ، وشفتيّ الداميتين ، وعيني في شبه غيبوبة و...

المثال – وتستريح ...

الحجر – بعد طواف اربعين قرناً ... كالرحلة الاولى تماماً .

المثال – اربعون قرناً ... لاحساب لها في كتاب الكون الراكض .

الحجر – هات الازميل .

المثال – انت سحر طائف ، ووثبة مغرية ، والتفاتة تقطر استفهاماً ... انت ... من أين ابدأ ؟..

الحجر – دع الرأس جانباً ، فما ينبغي ان تبدأ به ... ان ابتداءك بالرأس يوم التكوين جرّ عليّ تشريداً ...

المثال – الرأس هو كل شيء ، لا تمل علي شروطا .

الحجر – تقرأون الفهرس ... وتطوون الكتاب الى غير ما نشر .

المثال – العمر خطفات نواعر ... فلنغرقه في اللذة .

الحجر – وتتركني بعد ذلك رأساً لا جسد له .

المثال – ويكملك سواي .

الحجر – جواب ترابيّ .

المثال – المهم ان تصبح يوماً تمثالا كاملا .

الحجر – تفرغ همومك في تعذيبي ... وتذهب قريراً ... واظل في انتظارك قرونا .

المثال – أما كان يكفي ؟..

الحجر – واهواك تذهب عني ... وافنى في انتظارك .

المثال – يستهويني لاوعيك في احايين ، فاشفق واتنهد وانهار في الصفاء ، ولكن ...

الحجر – ولكن انانيتك لا تشبع ، فهي تريد السلم غب معركة موفقة .

المثال – وانت تكره الظل .

الحجر – اكره الفناء .

المثال – يخيل اليّ وانا ارى ظلي ... انني ارى موتي .

الحجر – وتريدني على صورة الانسان .

المثال – على صورتي .

الحجر – اذن سأكون رجلا .

المثال – بل امرأة .

الحجر – ضحية جديدة .

المثال – جاء الازميل .

صلاح الاسير

القبلة الاولى

يوسف الخال

ضممتها بكر من ضمت
بريشة البوح يعتريها
يلفها الطهر قرمزيا
ارتشف اللون باشتياق
فاطبق السر مستباحاً
تحجبني ، جهد ما تمنت ،
تحجبني ، جامع التمني
وانشق الفوح من شذاها
يا قبلة كلها نعيم
ولي بها غاية ترجى

وقبلة كان ما غنمت
سكون حب غفا ، وصمت
هام على ثغرها فهمت
يهم بي مثلما هممت
يموج في كل ما علمت
وتحنق الوهم ، ان وهمت
انثر في الحب ما لممت
معطر النفع اين رمت
حسبي من العمر ان نعمت
صليت من اجلها وصمت

العبقرية العلمية البريطانية

في العهود التي تتجابه فيها الاحزاب وتدور رحى الحروب لا يسهل على الفكر اعطاء حكم سليم في ما يقع من الاحداث ، ففي عهد « الارهاب » « La Terreur » لم يتصل بسوى عدد قليل من الباريسيين ان احد اكتشافات لافوازيه Lavoisier سيكون له من الاهمية الحاسمة في مصير الحضارة ما لم يكن لاعدام لويس السادس عشر Louis XVI او ماري انطوانيت Marie — Antoinette ولم يتفق لأي من معاصري بونابرت Bonaparte ان يوازن بين اهمية تراجع نابوليون Napoléon من موسكو واهمية اكتشاف برنار كورتوى Bernard Courtois لليود ، ونحن نعيش اليوم في عهد اشد اضطراباً واكثر ابهاماً وغموضاً مما سبق من العهود بحيث يجمل بنا ان نعيد النظر في ما اسلفنا من الاحكام والاراء .

ونخلص من ذلك حتما الى ان الاكتشافات العلمية الخطيرة ، بالرغم من اقدام الناس على اساءة استعمالها ، قد ادخلت تحسيناً كبيراً جداً على مصير الانسان . ومما لا شك فيه ان رقي العلم ورقي الانسانية واحد ، فان تكن الحضارة مهددة في يومنا هذا فالعلم ليس اقل منها تأثراً بالخطر .

وليس لنا مايقطع الدليل على هذه الفكرة افضل من تدليلنا على مقدار تخفيض المانيا لعدد الطلاب والاساتذة الذين يدرسون في المختبرات والمؤسسات والجامعات العلمية .

والواقع انه وان تكن الحضارة هبة العلماء للبشر الا ان الناس يجهلون هؤلاء العلماء ، بل يجهلون حتى علماء بلادهم . فالانكليزي الذي لا يجهل اسماء دراك Drake وفروبيشر Frobisher وكرومويل Cromwell ونلسن Nelson وويلنكتن Wellington وهيغ Haig وجليكو Jellicoe وبيتي Beatty ، ان الانكليزي الذي لا يجهل اسماء هؤلاء الامجاد من رجال الجندية والبحرية لا يجد مغيضاً من الارتباك عندما يطلب منه ان يذكر ما يوازي عدد هذه الاسماء من علماء بلاده مع ان هؤلاء الذين ذكرناهم من الجنود والبحارة وان كانوا من عظماء الخلق الا انهم لم يسبغوا على الانسانية من الفضل ما اسبغه عليها امثال بويل Boyle ونيوتن Newton وكافنديش Cavendish ودالتون Dalton ودافي Davy وفارادى Faraday وداروين Darwin وهكسلي Huxley وج . تومسون J. J. Thomson وغيرهم .

NEWTON

TiTo

السر اسحق نيوتن
١٦٤٢ — ١٧١٧

Sir Isaac Newton
1642 - 1717

واذا نحن ألقينا نظرة على الحركة العلمية في انكلترا منذ عهد روجه باكون Roger Bacon الى مطلع القرن العشرين يتضح لنا انه اذا كان العلم درساً دولياً على الخصوص فقد مثل العلماء البريطانيون دوراً على جانب من الاهمية بحيث لا يمكن



Sir Humphry Davy
1778 - 1829

السر همفري ديفي
١٧٧٨ - ١٨٢٩



Hon. Robert Boyle
1627 - 1691

أونورابل روبرت بويل
١٦٢٧ - ١٦٩١



Michael Faraday
1791 - 1867

ميخائيل فارادى
١٨٦٧ - ١٧٩١



Joseph Priestly
1733 - 1804

يوسف بريستلي
١٨٠٤ - ١٧٣٣



Lord Rayleigh — اللورد راليباي
1842 - 1919 — ١٨٤٢ - ١٩١٩

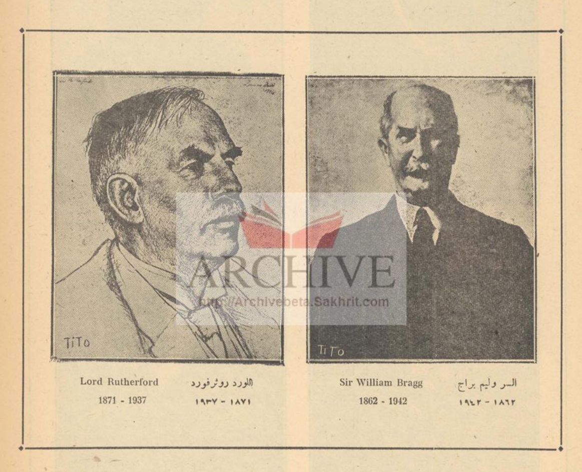
James C. Maxwell — جيمس كليرك ماكسول
1831 - 1879 — ١٨٣١ - ١٨٧٩

Sir Joseph Thomson — السر يوسف سومسون
1856 - 1940 — ١٨٥٦ - ١٩٤٠

Charles Darwin — شارل داروين
1809 -1882 — ١٨٠٩ - ١٨٨٢

أعطاء فكرة صحيحة عما اعطته العلوم والمعارف من غير ان تذكر في الطليعة اسماء هؤلاء العلماء . وقد لا نبالغ اذا قلنا ان العبقرية البريطانية ظهرت باجلى مظاهرها سواء في اكتشاف مبادىء الطبيعة الجوهرية والكونية او في الاختراعات الميكانيكية التي اخترعها العلماء الانكليز .

درس خصائص المغناطيس واخترع كلمة «كهرباء» وكان في مقدمة الذين دافعوا في انكلترا عن افكار كوبرنيك Copernic . ومع نيوتن (١٦٤٢ — ١٧١٧) ازدهرت المعارف البريطانية ازدهاراً فجائياً وما يزال هذا العهد المجيد ممتداً الى يومنا هذا .



السر وليم براج Sir William Bragg
١٨٦٢ - ١٩٤٢ 1862 - 1942

اللورد روثرفورد Lord Rutherford
١٨٧١ - ١٩٣٧ 1871 - 1937

ويبدأ تاريخ المعارف البريطانية بروجه باكون ، هذا الراهب من رهبان القرون الوسطى الذي كان في طليعة الذين اصروا على اهمية الاختبار في الاستقصاء العلمي .

وكان وليم جلبرت William Gilbert اعظم مشاهير عصره من تلاميذ باكون ، فهو الذي طبق اسلوب الاختبار او التجربة في

وقد تألفت جميات ومؤسسات علمية كالجمعية الملكية Royal Society والمؤسسة الملكية Royal Institution فساهمت مساهمة كبرى في تقدم العلوم والمعارف واسفرت عن اكتشافات هامة كالمكنة البخارية والدولاب المائي وغيرها من الاختراعات البريطانية .

الشباب طليعة الامة

بقلم الدكتور قسطنطين زريق
استاذ في التاريخ العربي بجامعة بيروت الاميركية

•

الحديث عن الشباب طويل متشعب يحار المرء من اية ناحية يأتيه وعلى اي نحو يسلكه . وهو حديث متجدد بتجدد الايام ، وما فتيء موضوعه منذ اقدم الاجيال يلهم الادباء ، ويثير الفكر عند رجال العلم وقادة الاجتماع . على ان هذا الموضوع لم يكتسب في أي من العصور الماضية من الاهمية ما اصبح له في الاونة الاخيرة عندما عمدت الامم المتقدمة الى تقوية بنيانها وترسيخ قدمها في الحياة ، فلم تجد قوة تستطيع ان تقوم بهذا العبء مثل الشباب ، فوجهت له اوفرعنايتها وحرصت على ان تجهزه جسماً وعقلاً وروحاً بما يؤهله للقيام بمهمته الدقيقة . واذا كان هذا شأن الامم التي قطعت من سيرها شوطاً بعيداً ، فأحر به ان يكون من اخص شؤوننا في البلاد العربية وقد بدأنا اولى مراحلنا نحو حياة ناهضة وتطلعنا الى مستقبل جديد يلوح في الافق البعيد .

ومن يطالع آثار الادباء ورجال الفكر يجد انهم قد تفننوا في وصف الشباب تفنناً كثيراً ، وأطلقوا لخيالهم العنان فصوروه شتى الصور وشبهوه بمختلف التشابيه . فهو عندهم قلب الامة ، او عرقها النابض . بل هو زهرة الحياة ، او ينبوعها المتدفق . او قل : هو الآلة المحركة ، او الركن المتين . ولعلك لا تجد تعبيراً يصور معنى من معاني القوة والهمة والامل الا وترى ادباء الامم قديماً وحديثاً قد اطلقوه على الشباب ورسموا ألوانه المختلفة ووجوهه المتعددة . وقد استعرضت ، ما علق بذهني من هذه الصور ، فلم اجد اكثر ملاءمة للحياة الحاضرة واشد انطباقاً على مقام الشباب الحقيقي في الامة ، من تلك الصورة التي تجعل من الشباب طليعة الامة في جهادها وتقدمها . اجل ان خير ما نستطيع ان نصف به الشباب ان نقول انه من الامة في الطليعة ، وان عليه ان يقوم لمجتمعه المتوثب بما تقوم به الطليعة للجيش المتحفز المناضل .

فما هي الصفات التي يجب ان تتحلى بها الطليعة ، والتي ترجى كذلك من شباب الامة ؟ اولى هذه الصفات ، بلا مراء ، هي ان تكون الطليعة متطلعة ابداً الى الامام . ان في اسمها نفسه ما يدل على النظارة الامامية التقدمية ، وما ينفي الالتفات الى الوراء . ومهمتها الاولى هي ان تخترق بنظرها النافذ الآفاق ، وان تجيل بصرها في ما يعترضها من سهول وجبال ووهاد : تستكشف السبل وتبحث عن موطن الامن ومواقع الخطر . فاذا هي لم تفهم مهمتها هذه ، بل حولت نظرها الى الوراء ، او ترددت بين ما يواجهها وما تركته خلفها ، وقضت وقتها حائرة لاتنظر نظراً واحداً مستقيماً، فقد أخفقت في ما نُدبت اليه ، وجرّت على الجيش الذي ارسلها الشر والخراب . وهكذا الشباب في الامة المجاهدة : اول واجب عليه ان ينظر الى المستقبل لا الى الماضي ، ان يتطلع لا ان يلتفت ، ان يستكشف بنظره الحادّ سبل الحياة الجديدة لا ان يكتفي بالتغني بالمجد القديم والعز التالد . عليه ان يكون في تفكيره وعمله تقدمياً لا رجعياً ولا حائراً بين التقدم والرجعية . الغايات التي يسعى اليها غايات منصوبة امامه ، فاذا حول نظره عنها بالتلفت او الحيرة او الوقوف ، ضاع وضيع امته وبلاده .

فليسأل شبابنا اذن نفسه هذا السؤال الاول : الى اية ناحية ينظر ، واين يتجه قلبه وفكره ؟ ليحاسب كل شاب منا نفسه ويوضح موقفه ، فان شر ما يمكن ان يصيب هذه الامة هو الا يفرق شبانها عن شيوخها ، والا يكون بصر الشباب ممتداً ابداً الى الامام . ولكم يحز في النفس ويثير كوامن الالم ان نرى ابناء الجيل الجديد يماشون الجيل القديم في ما ورث هؤلاء من قيود الماضي ، بل يسبقونهم احياناً في هذا المضمار ، لا عن اعتقاد وايمان بل رغبة في ارضاء هوى وبلوغ مأرب . هذا النوع من الشباب لا يؤدي حق مهمته ، بل يتزل بامته الشرور والاضرار ، لانه لايعرف مقامه الذي يجب ان يحتله في المجتمع : مقام الطليعة ، اوهو يعرف هذا المقام ويتغنى به ولكنه لا يدري ما يلقيه عليه من التبعات او ما يفرضه من الخصائص والصفات .

ومن الصفات التي يجب ان تتحلى بها طليعة الجيش : التنبه واليقظة . ففي كل عكفة من الطريق خطر ، وعلى كل مرتفع وفي كل منخفض مخالب لعدو متربص ، وحول كل خطوة اشواك ومزالق . فكيف لها في مثل هذه الحال ان تهمل او تتهاون ، ان تتلهى بالشهوة العارضة او الرغبة الخاطرة عن الواجب المرسوم والهدف المعين ؟

وما قولك اذا ملّت وتقاعست ، فنامت في الطريق ، اونسيت ما انتدبت اليه ؟ الا تكون قد تخلت عن وظيفتها وقصرت بواجبها،

وجلبت على نفسها وعلى الجيش الذي ارسلها اعظم الكوارث ؟ ان التاريخ مليء باخبار الجيوش التي اهلكت، والمواقع التي خسرت بسبب غفلة الطلائع وقلة احتراسها .

وهنا ايضاً على شبابنا ان يتساءل : ما هي درجة انتباهه لما يحيط بامته من اخطار ؟ اتهمه هذه الاخطار ، أتثير قلقه وخوفه ، ام هو منصرف عنها الى المشاغل الطارئة والاهواء النازعة به كل منزع ؟ أفي يقظة هو ، عينه مفتوحة ، اعصابه مشدودة ، ذهنه حي متنبه ، ام في خمود وسهاد ، تمر به الاحداث فلا يراها ، وتحيط به المخاطر فلا يدركها ، ويسير في طريقه الشاق الوعر على غير نور او هداية . كل شاب من شبابنا يعترضه هذا السؤال . ولا خير في ان يتخيل احدنا جواب غيره من الشباب عنه ، بل الخير كل الخير ان يجيب عنه هو نفسه اولا ، فيجلو موقفه ويرضي ضميره ، لان وعي الشبيبة عموماً لا يقوم الا على اساس وعي افرادها — كل بنفسه — وعياً صحيحاً كاملا .

والتنبه واليقظة يستلزمان صفة اخرى : هي الجرأة . فالطليعة الخائفة الوجلة التي ترتجف ازاء الخطر ، او تهن وتتراخى اذا جابهتها المصاعب ، مصابة حتماً بالفشل ، منزلة بجيشها ابلغ الشرور . على ان هذا قلما يحدث في الاحوال المنتظمة ، لان الشرط الاول في اولئك الذين ينتخبون ليؤلفوا الطليعة هو ان يتصفوا بالجرأة والشجاعة . وغالباً ما يكونون من الفدائيين يعلمون حق العلم ان الموت قد يطلع عليهم من اية ناحية وفي اية برهة ، ولكنهم يختارون مع ذلك السير في الطليعة ليؤمنوا جيشهم من الخطر وامتهم من الهلاك .

فما هي حالة شبابنا من هذه الناحية ، وهل يحققون فعلًا هذا المعنى الاساسي من كيانهم في الطليعة ؟ ليس المقصود بالجرأة هنا الطيش والتهور . فالطليعة الصحيحة ابعد ما تكون عن ذلك . انما المقصود هو الجرأة الرزينة ، الجرأة التي تقدر العقبات حق قدرها ، وتقدم مع ذلك عليها دون هيبة او وجل . وليست الشجاعة التي نطلب تلك التي تقوم على الصياح والنقد والتهديم . فهذه اسهل انواع الشجاعات ، بل قد تكون في اغلب الاحيان جبناً اكثر مما تكون شجاعة . وانما هي اولا جرأة في التفكير ، تثور على الشر والضلال فتهدمه ولكنها تجابه الحقيقة فلا تخشاها ، بل تخضع لها صاغرة منقادة ، اذ في الخضوع للحقيقة جرأة واقدام ، وفي الاستكبار والخروج عليها شر انواع الجبن والخذلان . وهي ثانياً جرأة في العمل . وليس من الضروري ، كما تعودنا ان نتصور ، ان يكون العمل باهراً خلاباً ليتطلب جرأة وشجاعة : فما هاتان الفضيلتان مقصورتين على المواقع والثورات والحروب ، بل ان في العمل البنائي الهادىء احياناً من الجرأة والاقدام ما لا يتجلى في اعظم الحروب ، واشد المواقع . واني لا اريد ان استعرض هنا حالة شبيبتنا لابين حظها من هذه الجرأة الحقة — الجرأة في الفكر العامل والعمل المفكر — وانما علي ان اؤكد بكل قوة ان الشبيبة اذا طمعت في ان تكون من امتها في في مركز الطليعة ، فقد وجب ان تحقق في ذاتها صفة اولى من الصفات التي يتطلبها هذا المركز : الا وهي الجرأة والاقدام .

ولكي تصل الطليعة الى هدفها وتقوم بمهمتها يترتب عليها ان تكون منظمة تنظيماً دقيقاً . والتنظيم صفة ضرورية للمجتمع ، وللجيش بصورة خاصة ، وللطليعة منه على الاخص ، ذلك ان الاخطار المحيطة بالطليعة تحتم عليها ان تخضع لاشد انواع الانتظام والانضباط ، وتمنع منعاً مطلقاً ان يكون كل فرد من افرادها قائداً او رئيساً . اذ لو سار كل في طريقه ، وتمشى كل هواه ، فكيف تبلغ الغاية ويصاب الهدف ، وكيف تتمكن العصبة الصغيرة التي تؤلف الطليعة من ان تتغلب على ما يجابهها من صعاب ، وتعود الى جيشها سالمة كاملة لتدله على الطريق الصحيح والسبيل المأمون ؟

وهكذا الشباب : اذا تفرقت قواه ، واختلفت اهواؤه ونوازعه ، وشد بعضه الى هنا وبعضه الى هناك ، فلا امل له بالقيادة ، ولا امل لامته بالتقدم او النجاح . فليفهم هذا الشباب اذن ان الانتظام — الانتظام في التفكير وفي الخلق وفي الحياة الشخصية والعلاقات الاجتماعية ، شرط لازم وصفة لا غنى عنها ، اذا اراد لنفسه او لامته الفوز والفلاح ، بل مجرد البقاء .

ان امام الشباب العربي مشاكل كثيرة تطلع عليه من مختلف نواحي حياتنا ، ولكن وراءها كلها مشكلة اساسية واحدة لا تتبدل : هي ان نفهم انه يجب ان نكون من امتنا في مقام الطليعة ، وان نتوق لاحتلال هذا المقام ، وان نسعى لنكتسب بالجهد والمران النزعة التقدمية والتنبه والجرأة والانتظام وامثالها من الصفات التي يفرضها هذا المقام الممتاز . فعسى ان نفهم كشباب اهمية غايتنا هذه ، وان نعمل ونجاهد على ضوء هذا الفهم لنؤمن لامتنا السبيل المضمون الى النصر والتقدم والنجاح .

قسطنطين زريق

حلم

◆

مال عنـا الرقيب والبدر ناما فغرقنـا صبـابة وغرامـا
حلم لا يزال ملء عيوني يا حبيبي ما أطيب الاحلامـا

لاح روض يجري حواليه نهر وتطير الاطيـاب عن جانبيه
تنفر الطير عنه رفاً فرفاً ثم تهوي رفاً فرفاً عليه
فاختلفنـا اليه نمشي الهوينـا بين هل الندى وفوح الخزامى
حلم لا يزال ملء عيوني يا حبيبي مـا أطيب الاحلاما

وعلى النهر زورق فارتمينـا فيه مستمسكين بالمجذاف
وجرينـا به نميل خفافاً من ضفـاف مخضلة لضفـاف
نطلق البوح نغمة شبه سكرى فيبوح الصدى به انغامـا
حلم لا يزال ملء عيوني يا حبيبي ما أطيب الاحلامـا

زورق يمخر العبـاب ودوحـان على رقص الموج تعتنقـان
وحفيف الغصون مـدة ناي ورفيف الطيور رجع كمـان
ليت نور الصبـاح مـا لاح او راح ينحي عن الهنـاء النيامـا
حلم لا يزال ملء عيوني يا حبيبي ما اطيب الاحلامـا

نقولا بسترس

الثـــــوب الممزق

بقلم سهيل ادريس

لم يفطن احد من القرويين لامر «عجاج» يختلف صباح مساء الى العين دون ان يبغي فيها شيئاً ، وانما يقتصر على الجلوس في ظلال شجرة جوز وريفة على مقربة من مياه العين، يرنو اليها تنهل صافية مترقرقة في ذلك الحوض الكبير .. وقد يمل هذا المنظر الرتيب ، فيأخذ عوداً ينكث به الارض ، وهو في كل ذلك يفكر محموماً متوزع البال، مايستقر به اضطرابه لحظة ..

ان ادرنبين يوماً قد مرت عليه في مثل هذه الحال من القلق الممض ، والحيرة المرمضة ، يلتمس تفريجاً فما يوفق ، حتى خال انه سوف يقضي مختنقاً ، لكثرة ما صعد من الآهـات تشقق صدره وتقرح حلقه .

هو لا يذكر الا انه رغب اليه يوماً ان يملأ «الجرة» من العين، فمشى اليها على هينة ، حتى اذا بلغها بصر بفتاة سافرة ترتدي ثوباً اخضر اللون ، تعود أدراجها الى دارها القريبـة من العين ، وان سيماء العيش الخضيل والحياة المترفة الناعمة ، لتتخايل على وجههـا البض ، فما شك «عجاج» في انها من هاتيك الفتيات المدنيات اللاتي يقضين مدة الصيف في الجبال ترويحاً للنفس وطلباً للرفاهية .

واتبعها عجاج نظره ، حتى رقت السلم، ثم دخلت الدار، وأغلقت الباب على تؤدة . ولعل اغلاق الباب هو الذي ابتعث فيـه ذلك الاضطراب الملح — فقد هداه تفكيره الساذج الى انـه لو لم تغلق الفتاة الباب لكان يقدر له ان يلقي عليها نظرة اخرى يتحرق الان شوقاً لان يحس نعيمها ، ويشعر بلذتها الرخية !

بيد ان الذي ترك في نفسه اعمق الاثر من تلك الرؤية الاولى، هو ذاك الثوب الرائع الذي تماثل خضرته لون هذه الاعشاب الرداً ، التي تذكر الربيع الاغر : حلم الفؤاد وصبوة الروح .

كان ذلك اللون الذي رآه يبعث في نفسه شعوراً قلقاً ، لكنه شعور عميق كأنه نشوة حائرة ما أشبهها بنشوة النائم استيقظ بهدوء على همس حلم سكر له .

ويتابع «عجاج» عمله في حقل ابيه شارد اللب محموم الفؤاد ينتظر ان يفرغ من الحراثة كيما ينطلق الى العين طائراً .. ومع ذلك ، فانه كان قلما يرى الفتاة في تلك الساعة المتأخرة من المساء، فكان يقفل كاسف البال ، متحطم الامل ... وكذلك قضى ما ينوف عن الخمسة عشر يوماً لا يتاح له ان يبلغ العين الا في السادسة مساء ، فلا يتيسر له ان يرى الفتاة المدنية الا غراراً ...

وذات يوم ، ازمع ان يقلع عن ارتياد الحقل الذي كان يتعهده بالحراثة والري ، غير عابيء بما قد يجره عليه عمله هذا من غضب ابيه الشيخ ، ومن حنقه العظيم عليـه . وعزف كذلك عن التردد الى مقهى القرية الصغير حيث تجتمع فئة من الشباب لاهم لهم الا التنادر والتحدث وقص قصص ما تخلو من فحش وخلاعة ... وما من سبيل لان ينكر عجاج ان تلك الاحاديث والروايات كانت تلذه ايما لذة وتبعث في جسده لذة تحول — اما تفاقمت — الى حنين ملتهب ..

ولكنه شرع يحس بعد صدوفه عن ارتياد المقهى ، وركونه الى ذلك المجلس الهادىء الريق ، ان بغضاً شديداً يتفجر من صدره قوياً زاخراً مستهدفاً اولئك الشبان الفاسدين والسوقة الغلف .. وكيف يكون هو منهم ، وهو يشعر منذ ذلك الحين بنفحة نورانية تتسرب الى صدره فتمسحه بيد الطهر والعفـة ، فمـا يراوده من الاحلام الا كل ناعم بريء ، وما يلم بقلبه الا غاضر الامل ... ولا عجب ، فان امل القروي فذ ما يشبهه امل ...

وثمة على العين ، لم يكن المجـال يتيح لعجاج ان يرى الدار الا من غير تمييز لاجزائها ، ولم يكن من سبيل الى الدنو منها اكثر مما هو دان ، فقنع بجلوسه حيث هو ، واجتزأ من رؤية الفتـاة بترددها الى الشرفة المطلة على العين .. وما من شك في ان الذي كان يؤذن الفتى بخروج الفتاة ، انما هو ثوب اخضر ... واذ ذاك فحسب تثور في صدره اضطرابة الصبابة في وحشة العزلة ويتأرث الحنين في القلب الظميء ..

ومكث عجاج زمناً غير يسير على تردده الى العين من غير ما عمل ، يزجي النهار كله معلقاً بالشرفة نظره، يتعجل الغد كأن ليس

بينه وبينه الا قوس او ادنى .

ولكن عن لفكره ذات اصيل ، ان يستأذن صاحب الارض التي تحف بالعين في ان يقلبها ويزرعها ويتعهدها ، فأذن له صاحبها لما عهد فيه من جد ونشاط واناة ومثابرة ومدّه ببعض المال .

ويومذاك فحسب ، استشعر عجاج في قلبه دعة وأمناً ، واحس بزوال ذلك الارتباك وتلك الحيرة يعروانه اما حاذى الدار . اما الآن فله ملء الحرية في ان يختلف اليها متى شاء ولقد شرع في عمله وهو على اشد ما يكون من النشاط ومن الفتوة ، وعني بحقله ايما عناية .

وتقاعده — ذات يوم — شغل عن الذهاب الى حقله ، فاحس الشوق يحيل عاطفته ناراً مشبوبة ، وما ان فرغ من هذا العمل الطارىء حتى انطلق الى العين تاسلا . . . وواجه حقله ، فعاين الفتاة ذات الثوب الاخضر منتحية منه ناحية مظلولة بشجر جوز ، وكانت مستلقية على العشب تقرأ في كتاب ، فشعر عجاج باختلاجة تسري في كيانه ولم يدر أي عائق استوقفه دون النزول في حقله . . . ووقر في ذهنه ان لم يبق له أي حق فيه ، واذ ليس في ملكه بعد . ولبث حيث هو لا يرفع بصره ولا يريم — وطال وقوفه ، فكان ان شعرت الفتاة بوجوده ، فالتفتت لفتة ولاحظت ارتباكه . . . فاستوت قليلا وبادرته :

— هل هذا الحقل ملكك ؟

فالتاث عليه القول ، وكاد بصره يزيغ غير انه تقدر له ان ينبس بخفوت :

— لا . .

« لا » ، واذن ما بالي واقفاً ، وليس يعنيني شيء ؟ .

اخذ يسير في طريقه . . . لم يكن سؤال الفتاة الا ابعاداً ، الا يكن طرداً . . . و « اراد » عجاج ان يغضب ، ولكنه لم « يستطع » ! وانّى له ذاك ، وان رسم الفتاة البارعة الجمال بثوبها الاخضر الرائع لينطبع في ذهنه انطباعاً ، فيسبغ على قلبه من الحنين والحنان . . . وتابع سيره بترفق بحزن تعتلج في صدره نوازع شتى ، ويضطرب في فؤاده مختلف الشعور ، ومن خلال ذلك كله تبرز صورة الثوب الاخضر ، فتستشيء حواسه . . ولبث يسير . . لبث وقتاً طويلا يمشي كأن « وهماً » بعيداً يجتذبه ويستدعيه اليه . . . وكثيراً ما يخدع الوهم الحس ويخلب المشاعر . . .

ونظر عجاج فجأة ، فاذا هو مشرف على القرية المجاورة . فارتاع واشفق ، وانتقل على عجل وراح يزف في سيره في طريق الرجعة .

بلغ العين على أشد ما يكون من الغضب ، وكان يلهث ويصعد انفاساً طويلة . وتشوف لحظة الى حقله ، فألفى الفتاة تقف روداً طالقة المحيا تكاد بسمة ان تطفر على شفتيها ، وتابع سيره حتى اوشك ان يحاذيها في الحقل ، وهو على ما هو عليه من لهاث وتنفس . ونظرت الفتاة اليه باغراء . وبادرته ببسمة عذبة ، ثم قالت :

— بلى ، ان هذا الحقل يخصك ، رأيتك طويلا تزرعه وتسقيه .

فتوقف وقد علق مزيج من شعور الدهشة يتسرب الى صدره ، ومكث لحظة حائراً . بيد انه لم يرد ان يمكث على صمته على الرغم من هذا الخفق الذي يعقل لسانه ويتناهى الى اذنه شديداً قوياً يملك عليه سمعه ، وحين عزم على التكلم ، الفاها تنظر اليه بفضول . قال متلعثما :

— ليس هذا الحقل . . . ملكي . ولكن صاحبه رغب الي ان اتعهده . . .

فعادت البسمة العذبة تراود فمها القرمزي ، واذ لاحظت ان لهاث عجاج يشتد ويزداد اتسعت حدقتاها فشع منهما بريق الجمال الفاره ثم قالت بهدوء ورزانة وبشيء من التعجب :

— ولكن لم تلهث ؟

لم يستطع ان يحير جواباً حين شعر بالدم يطفر الى وجنتيه فيصبغها احمراراً ، ولولا ان رأى شفتي الفتاة تفتران للتكلم لكان ذاب من شدة الخفر ! . . وعلى تؤدة رفعت ذراعها ، واستندت الى غصن شجرة دانية ، فكانت وقفتها فاتنة خلابة ، ثم امرت يدها على شعرها بعناية ودلال ، وسألت :

— ما اسمك ؟ . .

فعجب عجاج كل العجب ان تمكث معه هذا الوقت تسأله وتحدثه كأنها حفية به ، بيد ان هذا العجب لم يكن ليذهب ما به من اضطراب وحيرة ، وليس ادل على ذلك من جوابه هذا : — ولكن لماذا . . تسألين ؟ . . نعم ، اسمي انا ، عجاج !! واذ تلفظ باسمه ودّ ان يبتسم غير انه خشي الا تروقها بسمته فكبتها على على مضض بين شفتيه ، واذ ذاك رفعت اليه بصرها ، وقد عاودها الاستغراب ، وقالت بشيء من التهكم اللاذع :

— عجاج ! . . ما هذا الاسم ؟ . . وما معناه ؟ . . حقاً انه لقروي !! . .

لم يرد ان يستمع الى كلمة واحدة بعد « عجاج » التي لفظتها . . بشفتيها هي . . ولم يود ان يفهم ما تقصد من جملتها . . ان هذا

الجواب لا بد منه .. واذن فقد سمح لشعور الاطمئنان ان يهيمن عليه .. وتنفس الصعداء ، ورفع اليها بصره نشوان جذلا ، ومهد الجملة التي سينطق بها ببسمة قروية عريضة ، وقال :

– حقاً .. انك لجميلة ..

فالتفتت الفتاة فجأة كأنها افاقت من حلم وسارعت بقول هذه الكلمة الواحدة التي تنطوي على معنيين اثنين : اولهما التفاخر والتيه والاعجاب وآخرهما ينم عن سخرية لاذعة وتهكم مر :

– صحيح ؟! .

فنظر عجاج اليها وقد بدأت الخيبة تتجلى في عينيه وعلى تقاطيع وجهه . ولكن الفتاة لم تطفىء بسمتها فعاود عجاجاً بعض الاطمئنان ، وقال في شيء من الخجل والاسى ، وقلبه يخفق شديداً :

– انك جميلة جمالاً لا حد له . ولهذا ، فانني .. احبك ..

لم تدعه يتم جملته حين التفتت اليه بانتفاضة ورعشة ، ونظرت اليه متسعة الاحداق وقد كست وجهها مسحة من الغضب .. ولبثت امامه لحظة ثم رمته بنظرة مسخطة وقالت باشمئزاز :

– حقاً .. انك لاحمق ..

وانطلقت الى دارها ..

وفي امسية ذلك اليوم حين اوى الى فراشه ، شعر بالالم ينشر بين ضلوعه صفحات من اللوعة والاسى ، وكثيراً ما كانت الاحلام توقظه من منامه فيستوي في فراشه جالساً ، ويشرع يحدق في هذا الليل البهيم كأنه حارسه الامين ..

سلخ اسبوعاً في داره ، لا يتردد الى الحقل ، كأنما وطّن نفسه على الا يختلف الى العين قط ومضى على ذلك خمسة عشر يوماً ولكانت اكثر من ذلك لو لم يقبل صاحب الحقل غاضباً حانقاً يعاتب عجاجاً ويلوم . ويتهدده بالحرمان لتركه الحقل هذا الزمن الطويل دون ان يروى . ولم يكن خوف الحرمان هو الذي دفع عجاجاً الى وعد الرجل بزيارة الحقل اذ يصبح ، ولكن شعوراً معذباً يحاول عبثاً كبته شب في لحظة واحدة وملك على القروي الفتى ارادته ، وعزمه .

وما ان انشق عليه الفجر حتى نهض وقد عاوده من النشاط نصيب وافر ، واضطرب في فؤاده امل جديد . وخرج من داره يحس لهذا النور يفيض فيملأ الدنيا اشراقاً ، معنى جديداً لا عهد لفكره به . ولكن تلك الذكرى لم تكن تتردد عليه فتبعث الم من جديد ، وتنشر فوق ضميره وشاحاً من الظلمة الحالكة تعبر عن اليأس المرير . وهكذا وصل الى الحقل يعتلج في صدره شعوران متعاكسان انتصارهما سجال . وسقى الحقل بماء غزير ، ثم انتحى صخرة مرتفعة جلس عليها يرتقب ان تطل الفتاة على الشرفة كدأبها .

ولم يترع عن الشرفة ، واذ حانت منه التفاتة فرأى تحت الشرفة الثوب الاخضر الرائع ، منشوراً على حبل فأحس برد السرور والغبطة .. ولكن .. ما لبث ان احس حرَّ الاسى المكنون واللوعة المعذبة ..

ان النظرة الاولى الى الثوب ذكرته لون الاعشاب الريا تستدعي صورة الربيع الاغر : حلم الفؤاد وصبوة الروح ، فاذا نفحة النشوة توقظ مشاعره وتحمله الى اجواء عاطرة بالسحر والفتنة : والنظرة الثانية لم تره الثوب الا اسوم حالكاً يبعث الرهبة : ان هو الا الوشاح المظلم الذي يرف فوق ضميره ..

وهكذا مكث من الصباح الى الظهيرة يتنازعه ذانك العاملان، والفتاة .. والفتاة لم تكن لتطل من الشرفة ولا يظهر لها اي اثر كأنما الدار قد خلت من ساكنيها . ولم يفكر يومئذ بطعام ... ولم يحس الصدى .. لم يحس الصدى لان المياه كانت على قاب قوس منه ! ولبث على الصخرة ساهماً محموماً حتى كادت الشمس ان تطفل .. وكان لون الشفق تارة يحيي في فؤاده موات الامل وطوراً يطفيء نور الرجاء .. وألفى نفسه ينهض على مهل ، وقد بلغ به الاستغلاق غايته . كان كل ما يكتنفه مبهما .. كان كل شعور اخرس ، وكل عاطفة لا تعي ..

اخذت رجلاه تقودانه الى داره . ولكنه اذ نصف الطريق ، انفتل فجأة ، فأحس صدره يعلو ويهبط فكان يتسع حتى ليحوي كل شيء ، وينقبض حتى يضيق عن اي شيء ..

وطفق يعدو بسعر وجنون في الطريق الى العين ، واذ بلغها رمى بنظرة الى الشرفة ، ثم استأنف اسراعه ناحياً نحو البيت حتى بلغ السلم ، وانعطف .. فاذا الثوب لم يزل على الحبل .. وتقدم خطوتين واللهاث يشتد به ..

وكان على وشك ان يرفع يده الى الحبل ، حين برزت الفتاة فجأة من وراء الدار متجهة جهة الثوب .

اخذ ينظر اليها محدقاً ، وهي لا تفتر عن التقدم . وكانت منه على قوس حين افتر ثغرها عن بسمة عذبة كومضة الشفق وتهادت في مشيتها ، واذ بحدقيتها تتسعان فيشع منهما بريق الجمال الفاره وبادرته قائلة برزانة وهدوء وبشيء من التعجب :

– ولكن .. لم تلهث ؟؟

فانتفض انتفاضة سريعة ، وتذكر انه سمع مثل هذه الجملة ، فجحظت عيناه ، وعرته رعدة هزت كيانه هزاً ولبث محدقاً .. ثم ..

ثم رفع يده الى الثوب ، وانتزعه بشدةعن الحبل يعروه شعور عصبي لا يسهل كبته ، وحين املس الثوب الاخضر عن الحبل،رفعه الى فمه ، ووضع طرفاً منه بين اسنانه ، ثم شرع بتمزيقه بحركات مبهمة ..

وكان يهمهم وهو يمزقه ..

ولم يكن في طوق الفتاة ان تنتزع منه الثوب ، فاستنجدت بالصراخ .. وحين انبعثت صيحتها الاولى ريع القروي فترك الثوب يفلت من بين اسنانه ، وتناوله بيده باسترخاء وخور ..

وحين رأته الفتاة على هذه الحال من الوهن تقدمت منه على حذر خطوة خطوة ، وخطفت الثوب من يده الحائرة ثم انطلقت قاصدة السلم مذعورة مروعة . اما هو فبقي لا يعي من الامر شيئاً .. وكانت على وشك ان تلج باب دارها حين انقذف عجاج خلفها ، فاجتذبه من ذراعها وانتزع الثوب منها ثانية ..

ولم تجد الفتاة مندوحة عن ان تستأنف الصياح . واذ بشاب يبرز على الباب مندهشاً قد راعه صراخ اخته ، ولكن قبل ان يتهيأ للفتاة ان تؤذنه بشيء ، كان عجاج قد اسلم للريح ساقيه متجهاً في طريق البيت ..

بلغ داره منهوكا متعبا ..وتسلل بخفية الى غرفة النوم .. وهناك ، بسط فراشه ، واستلقى عليه بوهن ، ثم استوى جالسا ، وطفق يحدق بالنافذة ..

وكان الليل يرسل اول خيوطه السوداء حين امتدت يدعجاج الى صدره ، واخرجت ثوباً اخضراللون مزقت اطرافه الاطرافاً .. وحمله الى اسنانه واستأنف التمزيق ..

وكان يهمهم وهو يمزقه ..

ثم امسكه بين يديه ، واخذ ينظر اليه ، وقد تجلى في عينيه بريق السرور وألق الانتصار ..

وفجأة احتملت اسارير وجهه ،فحالت سيماء السرور الى مخايل الاسى اللاذع والشجو المضطرم .

وفي هدأة المساء ..

في هدأة ذلك المساء كان عجاج يجثو فوق الثوب المزق الاخضر ويأخذ يضمه الى صدره بجنو وشغف ..

واذا يده ترتفع بالثوب .. بالثوب المزق الاخضر .. الى عينه وتلتقط به دمعة واحدة ولكنها دمعة كبيرة حرى .. لم يرها الى هذا المساء .. هذا المساء الضخيان التياه ..

سهيل ادريس

الفيلبين ولبنان

بقلم امين الغريب

ترى هل من علاقة للفيلبين بلبنان تحملني على الجمع بينهما في هذا المقال ؟ اجل ان العلاقة موجودة وهي متنوعة مختلفة سأفصلها على قدر ما يسمح المجال .

الفيلبين مجموعة جزر في بحر الصين يبلغ عددها بين كبيرة وصغيرة ، ٧ آلاف جزيرة اكتشفها الرحالة البرتوغالي فرنان ماجلان الذي طاف حول الارض ووهب اسمه للمضيق الشهير الذي كان هو اول من عبره في طرف اميركا الجنوبية . لكنه بعد اكتشاف الفيلبين لم يكمل رحلته حول الارض لحض ان اهلها كافأوا هذا العالم المسكين الذي فتح أعين الدنيا عليهم باغماض عينيه عن الدنيا اذ قتلوه سنة ١٥٢١ . وقد دعيت هذه الجزر فيلبين نسبة الى الملك فيليب الثاني الذي كان وقتئذ ولي عهد ابيه شارلكان، فيكون عمر الفيلبين الان في نظر العالم المتمدن ٤٢١ سنة . اما مجموع مساحتها فيبلغ ٢٠٠ الف كيلومتر مربع ، اي انها اكبر من لبنان عشرين مرة . لكن الجبال فيها قليلة ، وسهولها من أخصب أرض الله ، وكلها صالحة للزراعة وغاباتها المشجرة واسعة تبلغ ٣٢ مليون فدان حتى يقال ان كنيسة اليسوعيين في مانيلا مأخوذ خشبها من شجرة واحدة . ولهذا تنظر اليها اليابان بشغف .

الفيلبين لم تتمتع بالاستقلال يوماً ، بل تعاقبت على حكمها سابقاً جاراتها الصين وجاوى واليابان . حتى جاءت اسبانيا فاستعمرتها نحو ٣٢٠ سنة . وظلت بعد استعمارها زمناً طويلا تدفع جزية سنوية لليابان بحجة ان هذه صاحبة السيادة الدينية على اهالي الفيلبين الوثنيين .

سنة ١٨٩٨ كنت اقيم في فيلادلفيا من الولايات المتحدة اذ استعرت الحرب بين هذه وبين اسبانيا . ولاأزال اذكر جيداً كيف ذهب الاسطول الاميركي الى مانيلا بقيادة الاميرال جورج ديوي ففتح الفيلبين بعد معركة صغيرة اتذكر من تفاصيلها ان القادة الاسبانيين قالوا لديوي : «نحن سنسلم ولكن يجب ان تطلق علينا بعض المدافع فيقتل بضعة جنود كيلا ينالنا القانون الاسباني الذي يمنع التسليم بدون محاربة» . وقد أشفقت اميركا عند عقد الصلح على الدولة المغلوبة الفقيرة وملكها الطفل الفونس الثالث عشر فدفعت لها ٢٠ مليون دولار ثمناً للفيلبين في أربع حوالات كل منها بخمسة ملايين . ولم تكن حكومة واشنطون طامعة بالاستيلاء على الفيلبين بل طامعة بتحريرها وتسليمها الى اهلها ، كما فعلت في جزيرة كوبا التي حررتها وقتئذ من الحكم الاسباني . فقد دربت اهلها على الحكم الذاتي حتى تعلموه فتركتهم وشأنهم . ثم قامت قيامة بعضهم على بعض فعادت الى احتلال كوبا ريثما تحسنت احوالها ثم تركتها . اما في الفيلبين فعلمت اميركا الناس ودربتهم على الحكم وعمدت مراراً الى تركهم ، لكنها راعت مخاوفهم من طمع جيرانهم بهم ومن الفتن الاهلية بينهم



فرديناند دي ماجيلان
مكتشف جزر الفيلبين

ولبت رغبة المفكرين منهم في التمتع بالحرية الشخصية والادارة الداخلية دون الاستقلال الخارجي فبقيت عندهم بصورة استشارية حازمة خفيفة الظل الى عام ١٩٣٤ اذ اعلنت انها تتركهم تركاً نهائياً بعد عشر سنوات اي عام ١٩٤٤ . ولا تزال عندي من تلك السنة قصاصة من جريدة لندن تيمس الملقبة «بالرعادة» تقول فيها : « ان انسحاب اميركا من الفيلبين يعد خاتمة لفصل من اجمل الفصول في تاريخ الادارة الاستعمارية . »

ولكي تعلموا لماذا قالت التيمس هذا اقول ان اميركا لم تستخدم في الفيلبين اضطهاداً ولا ظلماً ولا ارهاقاً، بل عطفاً واحساناً وشفقة . ولما ذهبت اللجنة الاميركية الاولى لتولى ادارة الجزر بعد الحرب زودها وليم مكنلي رئيس الولايات المتحدة بتعليمات صارت دستوراً اساسياً للموظفين كباراً وصغاراً في الفيلبين وهذا تعريبها الحرفي :
« في جميع انواع الحكم والادارة التي يفوض اليكم تنفيذها في الفيلبين ليكن نصب اعينكم دائماً ان الحكومة التي تنشئونها

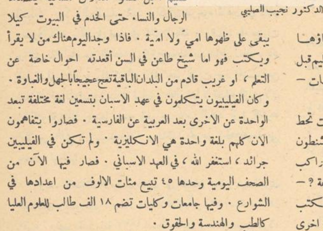
هناك ليس مقصوداً بها رضانا نحن وارتياحنا ولا تمثيل نظرياتنا في الاحكام كيف يجب ان تكون . بل المقصود سعادة الفيليبين وراحتهم وعمران بلادهم . فالتدابير التي تتخذونها في كل امر يجب ان تنطبق على عاداتهم وتقاليدهم حتى على اوهامهم الى اقصى درجة تتفق مع الشرائط الضرورية للحكم الحازم العادل .» وقد شهد العالم باسره ان عمال اميركا تقيدوا بهذه التعليمات الحكيمة، واثبته لنا كل لبناني وسوري عاد الينا من الفيليبين، وايدته بكل صراحة اميرة جرائد العالم الانكليزية .

اما كيف قام الاميركيون بهذا العمل فاسمعوا، ولا ينبئكم مثل خبير، كان صحافياً صغيراً في الولايات المتحدة ذلك الزمن ورأى بعينه وسمع باذنه وكتب بيده ما ينقل الان اليكم .

اول ما فكرت اميركا فيه مسألة التعليم .

نظرت الى بلاد فيها ٧ ملايين نسمة ليس بينهم الا ٤ في المئة من المتعلمين . ولم يكن الفضل للحكام السابقين في تعليم هذا العدد من الاهلين . لا لعمري بل للامة التي من بين سائر الامم، يجد الباحثون اينما ضربوا في اقاصي البلاد، ابناء لها تقدموهم حاملين مشاعل العلم الوهاجة ينيرون بها مجاناً بصائر المعمور في ظلمات العصور . ووجد ابناؤها سروراً في نشر العلم والحضارة بين الناس . فهل حزرتم من هي تلك الامة ومن هم ابناؤها الذين وجدتهم الولايات المتحدة كأنهم يمهدون لها سبيل التعليم قبل وصولها الى الفيليبين ؟ هم عدد قليل من الرهبان والراهبات — «الفرنسيين» .

ومما اتذكره ايضاً ان اللجنة الاميركية الحاكمة ما كادت تحط رحالها في تلك الجزر الشرقية حتى جهزت لها حكومة واشنطون اول باخرة سلمية تبعتها من كاليفورنيا رأساً وعليها ستمئة راكب وستة آلاف طن بضاعة . ولكن اي ركاب ؟ واية بضاعة ؟ — ستمئة معلم ومعلمة للصبيان والبنات . وستة آلاف طن من الكتب والدفاتر والاوراق والريش . ثم اتبعت هذه الباخرة بسفينة اخرى كان محمولها لجنة كبيرة من الاطباء . وكميات وافرة من الادوية والعقاقير وادوات الجراحة ولفائف القطن المعقم لاجل تأسيس المستشفيات في المدن والمستوصفات الثابتة في القرى، والنقالة بين الدساكر والمزارع . وكان اغنياء الاميركيين يتسابقون الى مد يد المعونة المالية لمشروعات الحكومة الاجتماعية . والجرائد الاميركية لا تترك شاردة او واردة في كل موضوع، فكانت تملأ صفحاتها ثناء على هذه الجيوش الجديدة الجرارة، للتعليم والتهذيب والتمدن والحضارة، تغزو بها اميركا الفيليبين بالكتب والادوية بعد ما فتحتها بالسيف والمدفع . ولا يقوم من الاهالي من يفسد على حكومته عملها باحتكار الارزاق وقتل الناس جوعاً، طامعاً بتكثير مكاسبه الدنيئة .


الدكتور نجيب الصليبي

وما كانت نتيجة كل ذلك ؟ مضى على اميركا اربعون عاماً في الفيليبين . كان عدد سكانها ٧ ملايين فصاروا ١٥ مليوناً . كان فيهم ١٢ الف ابرص فلم يبق للبرص وجود . كانت الوفيات بين كبارهم ٩٠ في الالف كل سنة فصارت ١٠ فقط . وبين اطفالهم ٨٠٢ في الالف كل سنة فصارت وفيات الاطفال ١٥٠ فقط . وهذا كله بفضل التدابير الصحية . اما التعليم فعمموه حتى شمل كل قرية ودسكرة . وجعلوه اجبارياً مجانياً لكل الاولاد على الاطلاق . ولم يتركوا الكبار ايضاً بدون تعليم، بل انشأوا مدارس مسائية يقصدها الرجال والنساء حتى الخدم في البيوت كيلا يبقى على ظهورها امي ولا امية . فاذا وجد اليوم هناك من لا يقرأ ويكتب فهو اما شيخ طاعن في السن اقعدته احوال خاصة عن التعلم، او غريب قادم من البلدان الباقية تعج عجيجاً بالجهل والغباوة . وكان الفيليبيون يتكلمون في عهد الاسبان بتسعين لغة مختلفة تبعد الواحدة عن الاخرى بعد العربية عن الفارسية . فصاروا يتفاهمون الان كلهم بلغة واحدة هي الانكليزية . ولم تكن في الفيليبين جرائد، استغفر الله، في العهد الاسباني . فصار فيها الآن من الصحف اليومية وحدها ٤٥ تبيع مئات الالوف من اعدادها في الشوارع . وفيها جامعات وكليات تضم ١٨ الف طالب للعلوم العليا كالطب والهندسة والحقوق .

اما ثروة البلاد فقد تزايدت طبعاً بما انشيء فيها من المشروعات التجارية والصناعية . كان معظم اهلها حفاة فاصبحوا كلهم ينتعلون . وكان نصفهم نصف عراة فصاروا يكتسون . وكانت قيمة

صادرات الفيليبين آخر سنة اسبانية ١٨ مليون دولار ، فاصبحت آخر سنة اميركية اربعمئة مليون . وكانت ثروتها العامة ٥٠٠ مليون دولار فصارت الان عشرة مليارات

والفليبني قصير القامة نحيف البنية عريض الوجه اسمر اللون فخور بنفسه ونسبه كريم مضياف غيور على عرضه كالعرب . وكان قبل العهد الاميركي يميل الى الثار لنفسه بيده فاغنته الان عن ذلك عدالة محاكمه السريعة .

اما علاقة لبنان بالفيلبين فقد انشأها اخواننا اللبنانيون الغر الميامين ورفعوا هناك اسم وطنهم والحمد لله الى اعلى عليين .

ولا يعلم غير الله كيف فتق للبنانيين ان يهاجروا الى الفيلبين . وغاية ما يقال ان المرحومين شاهين وحنا عواد من بكفيا معماً صدفةمنذ ٥٠ عاماً بذكر الفيلبين وخصب ارضها . فهبت في رأسيهما نسمة من الروح الذي قال في وصفه شاعر النيل المرحوم حافظ ابرهيم :

رادوا المناهل في الدنيا ولو وجدوا
الى المجرة ركباً صاعداً ركبوا

وسافرا ، كما تقول الحكاية في القرى ، « على كف الرحمان ايام وليال وليال وايام » حتى بلغا منتهى شرق الكرة . ونزلا في مندناو . فاخذا يعملان حتى اثريا . وتروجا من هناك لكي يمكنهما التملك . ولا يزال السيد رشيد عواد ابن المرحوم شاهين في داباو معدوداً اكبر مالك في قومه في تلك المنطقة . وقد جاء بيروت واقتنى عقاراً في حي الدحداح وتزوج بغادة من رياض زحله وعاد باسرته الى داباو . واذكر انه اراني بعض ثمرات جوز الهند من املاكه فسألته ان يزرعها في لبنان . فقال انها لا تصلح للزرع لان الحكومة هناك عندما تسمح باخراجها من البلاد تزيل قشرها الخارجي الذي لا تنمو بدونه . وهكذا تحرص الحكومة على مصلحة اوطانها .

وبعد الاحتلال الاميركي ذهب الى الفيلبين بعض المهاجرين اللبنانيين والسوريين . وصار عددهم الان نحو ٢٥٠ نسمة . كان مجموع ثروتهم يقدر سنة ١٩٣٧ بسبعة ملايين ونصف مليون دولار منها ٤ يملكها رجل واحد . ومليونان لثان ، و٣ ارباع المليون لثالث ، وربع مليون لرابع . ونصف المليون الباقي موزع على الباقين . وهناك لبناني يملك سفناً لنقل البضائع والمحصولات بين الجزر . ومهندس واحد ومحاميان . وقد انتخب احد اللبنانيين عضواً في المجلس الاشتراعي او البرلمان عام ١٩٣٧ ، وطبيبان اعرف احدهما الدكتور نجيب تقي الدين من بعقلين مع ابن اخيه الاستاذ سعيد . كما اعرف من تجارهم في مانيلا السادة حبيب اسكندر الغريب من الدامور ، وحنا كيروز من بشري ، ويعقوب الخوري من بشمزين . وفي ماسباتي السيد حنا طنوس الخوري ، وفي ليجاسبي السيد ابراهيم نجار .

على ان اكبر اسم لبناني سيبقى مكتوباً باحرف من نور في تاريخ الفيلبين فهو الصليبي بفضل ابناء المرحوم متري الصليبي من سوق الغرب ، لان اعمالهم الخالدة فيها جعلت للبنان علاقة بها لا تفصم عراها الايام ، ولا تعفي اثرها الاعوام .

ولد الدكتور نجيب متري الصليبي في سوق الغرب سنة ١٨٧٠ ودرس الطب في نيويورك ولما نشبت الحرب الاميركية الاسبانية سنة ١٨٩٨ تطوع لخدمة الجيش في كوبا . وذهب مع فرقته سنة ١٩٠٠ الى الفيلبين . ولما بلغها كانت المورو وهم مسلمون في مندناو تتحفز للثورة . فخطر للدكتور صليبي ان يذهب اليهم متكلاً على صراحته اللبنانية وطلاقة لسانه العربي ، وتمكن ببراعته من افهامهم صدق نيات الاميركيين ورغبتهم المنحصرة في تحسين حالة البلاد لا في امتلاكها . وما زال يوردهم أعذب الحقائق الناصعة حتى انصاعوا الى رأيه وصاروا من أشد انصار الاميركيين .

وأكبرت السلطات الاميركية عمل الدكتور صليبي فولته ادارة اعمالها في جزيرة مندناو . فعمل فيها كالنحل بلا كلل ولا ملل الى عام ١٩٠٣ اذ دعته الحكومة الى ادارة المدارس التي انشأتها في الفيلبين على طراز مدارسها الشعبية في الولايات المتحدة وعينته عضواً في المجلس الاشتراعي ينوب عن مقاطعة اصحابه المورو فبقي الى عام ١٩٠٦ اذ ضمه الجنرال وود الى مجلسه الخاص وكان لا يبرم امراً الا برأيه وسنة ١٩١٢ اقترن بآنسة اميركية ولم يرزقا اولاداً .

اما اصل المورو وفصلهم فضائع في بطون الاجيال السالفة . وكلمة مورو عند الاسبان تحريف كلمة « مغاربة » ، وهم اهل مراكش التي كانت قبل اكتشاف اميركا تدعى « المغرب الاقصى » والظاهر انهم من مسلمي الجزر الملاوية استوطنوا الفيلبين ونسوا تاريخهم . فلما جاء الاسبان وعرفوا انهم مسلمون دعوهم باسم « المورو » الذي يطلقونه في بلادهم على المغاربة حاسبين انه يشمل

جميع المسلمين .

وهم على كل حال مسلمون يحفظون كثيراً من مكارم العرب في اخلاقهم العالية وصدورهم الرحبة اعزاء النفوس ذوو اباء وكرم، في بيوتهم الكبرى منازل للضيافة وتقاليدهم تمت الى العرب باقوى نسب . كان عددهم في آخر العهد الاسباني اربعمئة الف، فصاروا الان اكثر من مليون بفضل التنظيمات الصحية التي كان ذلك الطبيب اللبناني والعالم الكبير اباها وامها . كما سترى :

حوالي سنة ١٩٣٠ نشرت جريدة « الجامعة الاسلامية » الرصينة في يافا سلسلة من مقالات عن الفيلبين شرحت بها اعمال الدكتور نجيب الصليبي وخدمته الجليلة للاسلام . وخلاصتها انه وجد المورو يتكلمون لغة غير العربية ولا يقرأون ولا يكتبون، ولا يعرفون من اصول دينهم الا انهم مسلمون . فعكف على درس لغتهم الخاصة ووضع لها اجرومية وقواعد لينتظم التفاهم بها خطاً . ثم حمل السلطة الاميركية على استجلاب كتب عربية لهم من بيروت والقاهرة ودعا بعض الشيوخ المسلمين من فلسطين لتعليمهم اصول اللغة والدين . وما زال يرقي احوالهم ويحسن امورهم ولا سيما الصحية حتى ازهرت بلادهم ووفر الخير فيها . ومن يقرأ مقالات « الجامعة الاسلامية » في هذا الصدد يجد العجب العجاب، ويقول ان الدكتور نجيب الصليبي كان اشبه بملك سماوي ارسله الله الى مسلمي الفيلبين فهوّن لهم سبل الحياة فيها .

ولم يقتصر عمل هذا النابغة اللبناني هناك على ترقية المسلمين . بل طبقت شهرته الطبية الخافقين بدروسه الثمينة لامراض المناطق الحارة ومعالجتها . فكان اساطين الطب يستفتونه من جميع الاقطار في العقد المستعصية فيحلها . وتدعوه الجمعيات العالمية العليا الى عضويتها فكان عضواً في نقابة الاطباء الاميركية والجمعية الجغرافية، والجمعية الشرقية الاميركية وطبابة المناطق الحارة واندية الجيش والاسطول وهلم جرا .

وقد جاء لبنان سنة ١٩٢٠ وزار الجبال والوهاد التي تعهدته افياؤها طفلا وزهت به رياضها يافعاً ثم عاد الى باغيو التي أحبها وصيرها بعنايته من اجمل بلاد الله في الفيلبين وتوفاه الله فيها بانفجار دماغي امهله يومين في ١٨ كانون الاول ١٩٢٥، فسودت جرائد البلاد صفحاتها حداداً عليه . وقالت جريدة باغيو بولتين ومانيلا ديلي بولتين : ان اهالي الفيلبين احبوه حباً جماً وحفظ المسلمون جميله في قلوبهم اذ كان لهم أصدق صديق وعمل لهم ما لم يعمله سواه في تاريخهم ولم يعرفه احد الا حزّ في صدره الحزن الشديد عليه . وقد ألف كتباً ثمينة بالانكليزية منها : تاريخ المورو وشرائعهم ودينهم، تاريخ سولو، اصل الفيلبين الملوي، الكتابة العربية بالحرف الروماني، لغة التعلم في الفيلبين، سولو ريدر، ماجندانا ريدر .

ومن اخوانه الاستاذ مراد الصليبي الذي اكبّ في الفيلبين على زراعة القنب ودرس طباعه ومهر في تحسين زرعه وكتب عنه مقالات لفتت اليه الحكومة الاميركية فعينته مفتشاً عاماً للزراعة فقام باعمال الجبابرة وهو لا يزال في مانيلا . اما شقيقه الآخر الدكتور امين الصليبي فقد لمع نجمه الساطع في تلك الجزر بمهارته الفائقة في الطب والجراحة وبراعته في تشخيص الامراض وفضله العميم على قاصديه، وقد آن له ان يستريح فعاد باسرته الى لبنان واقام في مسقط رأسه سوق الغرب .

ولا بد لي في هذه المناسبة من ذكر نابغة آخر من اسرة الصليبي نفسها التي انجبت عدداً كبيراً من كبار العقول، وهو الدكتور كالب الصليبي الذي كان في العلم الصحيح تحفة رائعة من لبنان، لا الى الفيلبين او مثلها من صغار البلدان، بل الى انكلترا نفسها التي جنت من عبقريته اعظم الفوائد وعينته معاوناً لوزير التغذية في الحرب العالمية الاولى .

وفي ختام هذه الكلمة اقول ان اهالي الفيلبين وعددهم ١٥ مليونا يدخنون ٢٥ مليون سيكارة كل يوم . ويرون التدخين من ضروريات الحياة حتى ان الحكومة في منطقة بيليبد توزع السكاير على السجناء والسجينات مجانا . وان اهم عمل فيها للبنات التطريز البديع الذي علمتهن اياه راهبات فرنسيات قديماً فبززن به صنع اليابان والصين وسائر العالم وهن يصنعنه باتقان من الحرير وخيوط مسحوبة من التفاح الصنوبري، والفيلبيني فخور بنفسه يحترم النساء جداً .

ويؤثر عن اهالي الفيلبين اليوم انهم يحترمون المحاماة اكثر من سائر الحرف . ولما قال احد القضاة الاميركيين مرة ان الفلاح النزيه افضل من المحامي المكار، عارضه جميع الحاضرين بقولهم : وهل في الدنيا محامون مكارون ؟ — ولله في خلقه شؤون !

امين الغريب



نشرت بأذن من مالكتها الانسة أمية



الأغـــاني

هذه كلمة في الموسيقى تحدثك فيها عن علاقة الموسيقى بالامة من وجهة التقدير والتكريم لا من وجهة التأليف والتصوير فهي الى التاريخ وعلم النفس اقرب . فنحن نبحث اليوم عن تعلق الامة بالموسيقى واسباب اقبال الشعب عليها وانصرافه عنها :

عد الى التاريخ المصري وطف بالمعابد وانظر الى ما ترك المصريون من آثار تجد تعلق الامة بالموسيقى ناشئاً عن اعتبارها جزءاً من العبادة بالابتهال الى الله وتكريم الارباب كأنما يصعد الى السماء على اجنحة الموسيقى . ولهذا فقد نهضت الموسيقى نهضة في مصر جعلت كل الامم عيالا عليها ، شأنهم في كل علم وفن . وقد نسب المصريون الموسيقى الى هرمس الاول فقالوا نزل بها من السماء وركب للمصريين عوداً شد عليه ثلاثة اوتار وجعلها لهم رياضة .

وكانت الموسيقى جناح السحر والنجامة . وقد مزجوها بالطب لما لها من اثر في روح المريض وجعلوها في الجندية لقوة سحرها في نفس الجندي عند القتال . فالموسيقى كما رأيت مقدسة في مصر ايام الفراعنة ، والتقديس هو التكريم في اعلى درجاته ، لهذا نمت وزكت .

ولا يزال التاريخ يروي عن الكلدان قصة الجندي الذي جعل من قومه قيثارة يغني عليها نشيد انتصاره ، وكلدة تزاحم مصر على شاطىء المدنية وان كانت المدنية المصرية اظهر وابهر .

وجاء اليونان وقد اخذوا علومهم عن المصريين باعترافهم ، ونقلوا عنهم فيما نقلوا الموسيقى . وكان اعجاب اليونان بالموسيقى اعجاب غيرهم بالمعجزات . وما عساهم يطلبون في المعجزات اكثر مما يرونه في الموسيقى من التأثير في الروح ونشاط النفس ؟ وذهبوا في عبادتها الى ان نسبوا اليها كل فضيلة . وراح افلاطون وارسطو يشيدان بذكرها ويجعلانها باب العلم ويحضان الطلاب على اقتباسها . ورأى افلاطون فيما رأى لاصلاح الامة ، ان تعنى الحكومة بحماية الموسيقى لما لها من اثر فعال في تهذيب الناشئين ، آخذاً في ذلك اخذ المصريين الذين سهرت حكومتهم على حماية الموسيقى واعلاء شأنها ووضعها في الموضع اللائق بكرامتها خوف ان تسف فتسوء بها اخلاق الامة .

وكانت اليونان مولعة بالجمال ، فعدوا الموسيقى منه ونوهوا بها حتى نسبت اليهم ، فاللفظة التي نسمعها مكونة من الميم والواو والسين والياء والقاف والياء ليس لها في معجمات اللغة العربية اي اثر ، وذلك لانها منقولة عن اليونان فيما نقله العرب عنهم .

وقال اليونان في اساطيرهم ان الاله جوبتير له من زوجته «منيموزين» تسع عذارى هن ربات العلوم والفنون ، وكانت امهن ربة العظمة . وقد شئن ان تكون كل واحدة منهن ربة علم او فن تعرف به وينسب اليها فكان الذي أردنه .

اما الاولى — فهي «كليو» وقالت انا للتاريخ . واما الثانية — فهي «تالي» وقالت انا للكوميديا . واما الثالثة — فهي «ملبومين» وقالت انا للتراجيديا . واما الرابعة — فهي «ادانو» وقالت انا للشعر

الرقيق . واما الخامسة — فهي « كليوب » وقالت انا للملاحم او شعر الحماسة . واما السادسة — فهي « اوراني » وقالت انا للفلك . واما السابعة — فهي « بوليني » وقالت انا للفصاحة . واما الثامنة — فهي «ترسيشور» وقالت انا للرقص . واما التاسعة — فهي «اوليرب» وقالت انا للموسيقى . وظلت ربات العلوم والفنون عذارى ولهن الجمال الرائع وخدمن العلم والفن وراح الشعراء يتغزلون بهن ويصورونهن على الجبال وفي المعابد وعند عيون الماء . واخذت ايطاليا عن اليونان هذه الاسطورة وشاعت في العالم فنقلت الى العرب كلمة «موسيقى» .

وليس هذا كل ما تفيده الاسطورة بل هناك ما هو اعم وانفع .

فانت ترى ان اليونان يريدون ان يقولوا عن ربات العلوم والفنون انهن من اب واحد وام واحدة ، فهن شقيقات ولا ميزة لاحداهن على اختها . ولكن ميل كل ربة من هذه العذارى وجهها الى التخصص ، ونشأ عن هذه العبادة ان الموسيقي في بلاد اليونان كان في درجة الحكيم ، ولم تر في تاريخ اليونان اثراً للتفريق بين علم وعلم وفن وفن ، فنهضت الموسيقى وزكت كما رأيتها في مصر .

وكانت امة شرقية هي شعب اسرائيل قد اخذت عن المصريين فنها الموسيقي لغلبة المدنية المصرية عليها ايام بقائها تحت سلطان الفراعنة ، الى ان اراد آله اسرائيل انقاذها من يد المصريين . فلما خرجوا من مصر ووقفوا على جبال سينا انشد موسى نشيد الشكر لله ، ورنمت مريم اخته ، وكانوا يهللون لله كلما رأوا هلال الشهر ، ويرقصون بين يدي الله . فالموسيقى عندهم من العبادة .

ولهذا كان مقامها فيهم هو المقام ، ونزل كتاب داود « المزامير » نشيداً روحياً له معجزته الموسيقية ، فهو من النظم الذي يتلبس بالروح الموسيقية فيفعل في النفس ما تفعل الآيات فلا بدع اذا بقيت الموسيقى مرفوعة المقام بين هذا الشعب الى اليوم .

وجاءت النصرانية ، فحفظت للموسيقى مقامها ولا تزال ترى الكنائس تموج بنسمات الاصوات الجميلة على نغم الارغن . فهي من العبادة كما كانت في مصر وفي امة اسرائيل . ولقد عدها القديس توماس انها في الطليعة من العلوم والفنون . وجعلوا يدرسونها في القرون الوسطى في مدارسهم لا فرق بينها في الدرجة وبين علم الهندسة والفلك . وليس من شأن كلمتنا هذه كما قدمنا ان نعرض للموسيقى من وجهة التصوير والنغم فهذا شأن علماء الموسيقى ، ولكنا نقول ان للكنيسة في العصور الوسطى الفضل على فن الموسيقى لانها صانته من السقوط ورفعت من شأنه ونهضت به ودلت على مقامه وحضت على درسه . ولكنها وان اخذت عن معابد اسرائيل الموسيقى فانها مزجته برقة اليونان فكان لوناً جديداً تتقبله الروح بشيء من الترويح عن النفس والترغيب في ملكوت الله فاذا كانت موسيقى اسرائيل اشجاراً باسقة فقد صارت موسيقى النصرانية فاكهة لذيذة وازهاراً جميلة . كانت موسيقى اسرائيل شامخة مباهية بآله اسرائيل المنقذ القوي ، مصحوبة برقش حافظ لوحدة النغم ، فهي موسيقى فرحة سافرة . ولكن الموسيقى النصرانية نشأت متأثرة بالحالة الاولى التي كان عليها أهل هذا الدين من التحرز والصمت احياناً والصبر على مكاره الاعداء الاقوياء . فكانت لا تجهر بالنغم جهر الموسيقى الاسرائيلية كما كان لا يصحبها رقص لغلبة التكتم على اصحابها . وطالما اثرت الفرديات على صوت الجماعة بحكم التستر والتحرز . فلما غلبت النصرانية على الوثنية سمع لها الصوت الشجي فيه من حرية التعبير ما كانت محرومة اياه من قبل واخذت الشعوب تخرج موسيقى الكنائس باغانيها الوطنية فراحت ملاى باغان شعبية دالة على مزاج الشعب الذي تغنيه . ولعلك ترى في تراتيل الكنيسة القبطية اثراً من آثار مصر الاولى يميزها عن غيرها من اناشيد الكنائس الكاثوليكية .


آلهة الموسيقى

وكانت موسيقي الكنائس تابعة للغة الدين . وكان لا بد لكل امة من ان تتذوق حلاوة الموسيقى بلغتها . فنشأت الموسيقى الشعبية تلبس قصائد الشعراء . فتملأ هذه الاشعار من روح الغناء المطرب ما يسر قلوب السامعين . وكان في الشعراء من ينشد شعره بنفسه ومنهم من يتركه لمن يلحنه وقديماً كان في اليونان صاحب الالياذة

يغني الناس بملاحمه .

وترى مما قدمنا ان الموسيقى لم تسقط في عين الشعوب المصرية ومن اليها ، واليهود والنصارى ، لاعتبارها جزءاً من الدين . وجاء العرب وقد جاوروا الفرس والروم، فكان لا بد لهم من ان يأخذوا عن هذين الشعبين .

ولكن عرب الحجاز كانوا على البداوة لغلبة الفقر عليهم ولشيوع الحياة الرملية فهم قوم كد وجلاد ، وطلب القوت في نفوسهم اغلب عليهم من طلب الموسيقى . فان كان لا بد لهم من الترنم فبالابيات على الراحلة يهون بها الرجل على نفسه في الفلاة والغربة ، وليست من الموسيقى بالمعنى الفني في شي. . فلما اخذوا في بناء الكعبة في الايام القريبة من الاسلام ونشأ الدين ودخل بعض الروم والفرس اسرى في خيام البدو من العرب تغنوا بغناء بلادهم وحنوا للوطن واشتاقوا لعيالهم فبكوا ما شاء الله ان يبكوا فنبه ذلك من العرب وتذوقوا حلاوة في النغم ليس لهم بها عهد من قبل فطلبوه .

ولكن الدين جاء بترتيل القرآن ، وشمس القرآن ايام النبوة كسفت الشعر المتألق وغضت من الفصاحة القرشية ، فكان لا بد لها من ان تزري بالاغاني . ومن يسمع القرآن باحسن الاصوات وفيه تخويف وترغيب لا يسمع للناي والعود .

صحيح ان صاحب الشريعة الغراء لم ينه النساء ان تغنى للعروس ولم يزجر من حنين بالدف من بنات النجار للقائه على ظاهر المدينة وهن يقلن : « طلع البدر علينا من ثنيات الوداع » ولكن الغناء كالكلام قديم، بل هو اقدم من الكلام ، لان لغة الغناء اعم ولغة الكلام اخص ولكل شعب لغة . قد يفهم شعوب متفرقة الغناء . فلا بعد الميل الى الغناء البسيط كما رأيت معرفة بالموسيقى على الوجه الفني .

وفي العرب خلق آخر منع من ان تعيش الموسيقى في صدر الاسلام : القول بان الشعر يزري بالرجال . حتى قال الله عن النبي « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » وقصة امرىء القيس الذي كان يقول الشعر في صباه وقصة ابيه وغضبه عليه لذلك معروفة ، فليس الشعر للامارة والحكم والجاه . وان كانوا يقولونه ولكن كرهوا ان يتكسبوا به . والموسيقى تنبت حول حياض الشعر ، فاذا غضوا من الشعراء المتكسبين فهم يغضون من اهل الفن والموسيقى . بل ذهبوا الى ابعد من هذا ، فقالوا : « ان الكتابة تزري بالفارس . » حتى شاع في قرى الصعيد هذا المذهب . ولقد سألنا بعض هؤلاء القوم فقالوا : « وما نبقي للصيارفة اذا زاحمناهم على الجلوس وراء الابواب لحصر الدخل والخرج ؟ ومن يكون للرمح والفرس ومغازلة الحسان ؟ » فالخلق البدوي كاره للتكسب بالغناء . ولا يعرف الموسيقى الا من هذا الوجه ، فلم يجد الفن الموسيقي في بلاد الكعبة من يروج له ويأخذ بناصره ، ولكن الاسلام غزا وغلب وعاد بالمال والاسرى .

وكان العرب قبل الاسلام لا يعرفون من فن الموسيقى شيئاً، وهذه الكلمة غريبة تراها في معاجمهم دخيلة عليهم مما اخذوا عن جيرانهم الروم وكانوا يقولون الشعر سجية فيهم ولكنهم كرهوا ان يتكسبوا به ، وذموا من كان هذا شأنه فيهم : دعاهم الى هذا طبع ترفع عن الذل ، وميل الى الاخذ بمذهب القائل ماتستطيع ان تناله غلاباً فلا تنله طلاباً . وقلنا ان الشعر للموسيقى كالثوب للجسم والجسد للروح ، وان الموسيقى لغة الدنيا عامة ، واللغة من حرف واسم وفعل انما هي خاصة بامة دون امة . وانك لتسمع للموسيقى فترضى او تغضب ، وتبكي او تطرب ، وتسكن او تثور ، وتعدل او تجور ، ولكنك تسمع الكلام غريب عنك فتحسبه رطن رطانة لا تعرف منها المعنى حتى يترجم بينكما عارف باللغتين ، موفق بين الالفاظ والمعاني فالموسيقى لغة الاحلام ، والالفاظ من لغة اليقظة وليست في الاحلام، لتدرك المعاني في حاجة الى الكلام .

نظر العرب الى الموسيقى نظرة جعلتها دون الشعر او هي وليدته . على ان الشعر محاولة لاخراج المعاني الروحية لا تبلغ مقام الموسيقى الا في مواضع دون مواضع . واذا كان لا بد من القول بان العرب تغنوا ، فنقول انهم في غنائهم كانوا على الفطرة ، ولا عهد لهم بالفن على الوجه الذي يعرفه اصحاب هذه الصناعة . وكانوا لا يعرفون من الآلات الموسيقية الا البسيط منها ، كالدف والطبل والمزمار والرباب .

ولو علمت ان اليهود نزحوا الى بلاد العرب واقاموا في المدينة ومكة ، وجعلوا من خيبر مدينة لهم حتى عرفت بانها مدينة اليهود اذن لرأيت ان هذه الآلات مأخوذة عنهم ، خصوصاً الدف والمزمار .

وقد رأيت في التوراة ام مريم اخت هرون وموسى ، مشت بين شعب اسرائيل بعد الخروج من مصر بدفها ترنم لله ، وان موسى انشد لله نشيد الشكر على جبل سينا ، فاليهود ادخلوا الموسيقى في بلاد العرب ولكن العرب لم يأبهوا لها ، ولم يأخذوا شيئاً منها ، الا ما وافق حياة البداوة .

اما الرباب فهي قطعة موسيقية قديمة العهد ونرى (اذا قلنا ان المصريين الذين حكموا في مصر في القدم نزحوا من بلاد العرب) انها اعجب ما وصلوا اليه من الابداع، وراحوا يرسمونها على معابدهم

كأنها قلب معلق بنياط ، وجعلوا اسمها « نفر » .

والذي نراه من مقابلة اللغة العربية باللغة المصرية ان « نفر » ومعناها الجمال ، تقابل « نور » في لغة العرب والفاء مقابل الواو عند العرب ولها نظائر في اللغة العبرية ، واليك المثال :

« ولد » في العربية تقابلها « فلد » في العبرية و « وريد » في العربية تقابلها « فاريد » في العبرية ، والمعنى واحد والعبرية والعربية توأمان .

وجئنا بالرباب في هذا السياق لعلاقتها بالموضوع نحدثك به ، وللتدليل على انها قطعة قديمة وجدت في اساس اللغة المصرية . فاذا ثبت ان عرب الجنوب وهم اهل اليمن ، نزحوا الى مصر ، وثبت انهم جاؤوا بالمدنية الاولى معهم الى بلاد النيل ، وثبت ايضاً ان الربابة من مدنيتهم ، كان لنا ان نقول ان هذه القطعة الموسيقية من ابداع عرب الجنوب ، وهذا لم يقطع به التاريخ . والذي نقطع به هو ان المصريين سموا هذه الآلة الجميلة المطربة باسم النور ، لما تبعثه في السمع من الطرب ، وما تحدثه في الروح من المسرة ، كما يحدث منظر النجوم والازهار في الرائي .

ولهذا دعوا كل ذلك باسم « نفر » وذهبوا في ذلك الى ابعد من هذا ، فسموا الجميل من الرجال « نفر » « نور » واضافوا تاء التأنيث الى هذا الاسم للجميلة فقالوا « نفرت » ، ولعلك سمعت حديث تمثال هذه السيدة « نفرت » الذي دار بين المانيا ومصر .

والذي نجده من هذا الحديث ، ان العرب لم يعرفوا في بلادهم الشمالية عند الحجاز الا الرباب ، وزادوا عليها الدف والمزمار والطبل . ولم يعرفوا من الآلات الوترية غير الرباب ، بدليل ان اشعارهم جاءت خالية في ايام الجاهلية قبيل الاسلام ، من الاشارة الى البرابط والمعازف الاخرى التي عرفها اليهود عن المصريين .

ولم يكن جهلهم الموسيقى عن غلظ في الطبع ، فالبدوي رقيق الحاسة ، واشعاره في الحب معروفة ولكن الموسيقى صناعة تقف من الهندسة وعلم الهيئة في ميدان واحد ، وأنى لهذا البدوي الامي البعيد عن منابع العلم ان يجيد صناعة الاقيسة الزمنية والصوتية ، ودرجات الصوت وانخفاضه مربوطة بحساب ؟

بل أنى لهذا البدوي الذي يجاهد في سبيل العيش ان يلم بالموسيقى ؟ . وانى لهذا الكدود الذي يسكن القفر ، فلا ماء ولا شجر ، ولا خفض في العيش ، يطلب الموسيقى ، وهي وليدة المدنية والعلوم العالية ؟ انى للمباهي بالقوة والفروسية الذي يرى الغلب من مواهب الرجولة ان ينزل للموسيقى ويصبر على دعتها ، ويعالج تذليل صعابها ، حتى تستقيم له وتطمئن لانامله واذنه ويعي منها المطرب والمبدع !

انه لا يرى من الموسيقى الا ما تراه الفطرة من ارسال الصوت على السذاجة في الشعر العذب يذكي به الالباب ويحتفل ، ويسميه العربي « الترنم » فاذا ترنم فيما هو دون الشعر ، قال انه « التغبير » يذكرون به الغابر من شبابهم ، ولعله الى الترتيل اقرب .



ولليهود ولع بالترتيل تسمعه من شيوخهم يتلون شيئاً من التوراة ، فعل يهود العرب ، افادوهم هذا الضرب من الغناء ، ونزل الكتاب بالحض على الترتيل لما يشيعه الصوت الحسن من الحلاوة ، فيعين على السماع . ثم كان للبدوي ان يقطع الفلاة في عيره وان يغني فيطرب نفسه ، ويطرب معه الابل ، فارسل النفس بالذكريات ارسالا ، فكان « الحداء » وكان « حادي » العيس .

وكان فيهم من قبيلة بني كلب رجل حسن الصوت اجاد الحداء ورق فيه ، فعرفوه بهذا الصوت وسموه باسمه ، فقالوا انه « الجنابي » نسبة الى جناب بن عبدالله ، وقالوا ايضاً عن هذا الصوت « النصب » ودعاه اهل الصناعة « السليك » ، واختص به الركبان واهل المراثي ، وخير ما يصلح له في الشعر بحر الطويل .

وكانوا اذا جادوا بالصوت المردود المرجع الكثير النبرات والنغم ، وهوما يحتاج الى تمكن من طول النفس وحلاوة الصوت ودقة الاداء ، قالوا انه « السناد . » فاذا جهدوا ان يناسبوا بين الغناء في اللحن الخفيف وبين آلة موسيقية من الدف او المزمار او بهما معاً ، ويناسبوا بينه وبين الترقص ، قالوا انه « الهزج » .

ولقد اعجبوا بهذا الصوت اعجابا دعاهم الى القول بانه يشيع فيهم الطرب ، حتى ليستخف الحلوم ، وهذا جهد ما بلغه البدو أو عرب الحجاز اطلاقاً من الفن الموسيقي . وقد ذاقوا من هذه المناسبات حلاوة الاصطحاب (الهارمونية) ، فقالوا انه مرقص ،

وتنزه العظماء والاشراف عنه لانه يلهي الناس ويطرب الحكيم .

وقال مؤرخو العرب ان الهزج من ابـداع الفطرة السليمة العربية . ولكنا نقول انهم نقلوا عن اليهود هذا الاصطحاب نقلا بطريق التقليد ، لا بطريق العلم والفن ، ولا بطريق الابداع . والا فكيف ابدعوا المزمار وهو قطعة موسيقية لها شأنها في فن الموسيقى ، ولا تصل اليد الى ابداعها الا بعد ان يعرف مبدعهـا من اصول الفن ، الاقيسة الزمنية والصوتية ، ويناسب بين الانجاش «الفتحات» عند الوضع ، وتجريد الانامل ، وارسال الصوت في ارتفـاع او انخفاض وشدة ولين ؟ امـا اذا قلت انهم قلدوا ، فانا نسلم لك خصوصاً اذا علمت ان هذه القطعة معروفة عند المصريين ، واخذها اليهود عنهم .

وعلى الحالين فقد بلغوا من الموسيقى هذا الحد الى ان جاء الاسلام وهم لا يعرفون عن البربط شيئاً . وانك اذا رجعت الى كتاب الاغاني رأيت فيه حديث ناهض بن قومة الكلابي وكان بدوياً جافياً كأنه وحش ، وكان طيب الحديث ، وهو يصف عرساً ويصف فيه الآلات الموسيقية حين يقول : « فبينا نحن كذلك ، اذ هجم علينا شياطين اربعة احدهم قد علق في عنقه جعبة (كانة النشاب) فارسية مسنجة الطرفين دقيقة الوسط مشبوحة بالخيوط شبحاً منكراً (يصف الكمانجة) . ثم بدر الثاني فاستخرج من كمه هنة سوداء كخرطوم الفيل (المزمار) فوضعها في فيه ، وصوت بها صوتاً لم اسمع وبيت الله اعجب منه ، فاستتم بها امرهم . ثم حرك اصابعه على احجزة فيها فاخرج منها اصواتاً ليس كما بدأ ، ولكنه اتى منها ، لما حرك اصابعه ، بصوت عجيب متلائم متشاكل بعضه لبعض ، كأنه — علم الله — ينطق . وكان معنـا في البيت شاب لا آبه له ، فعلت الاصوات بالثناء عليه والدعاء له . فخرج فجاء بخشبة عيناها في صدرها ، فيهـا خيوط اربعة (العود) ، فاستخرج من خلالها عوداً (الريشة) فوضعه خلف اذنه ، ثم عرك آذانها وحركها بخشبة في يده (الريشة) ، فنطقت ورب الكعبة ، واذا هي احسن قينة رأيتها قط . وغنى به عليها فاطربني ، حتى استخفني من مجلسي . فوثبت فجلست بين يديه وقلت : بابي انت وامي ، ما هذه الدابة فلست اعرفها للاعراب ؟ ومـا اراها الا خُلقت قريباً .

فقال : هذا البربط .

فقلت : بابي انت وامي فما هذا الخيط الاسفل ؟

فقال : الزير

قلت : فما الذي يليه ؟

قال : المثنى .

قلت : فالثالث ؟

قال : المثلث

قلت : فالاعلى ؟

قال : البم

فقلت : آمنت بالله اولا ، وبك ثانياً ، وبالبربط ثالثاً ، وبالبم رابعاً

قال الراوي فضحك ابي والله حتى سقط ، وجعل ناهض يعجب من ضحكه . ثم كان بعد ذلك يستعيده هذا الحديث ويطرف بـه اخوانه فيعيده ويضحكون منه . »

وقد رأيت من هذا ان العرب ما كان لهم بالموسيقى علم ، وانها دخيلة ، خصوصاً آلاتها الوترية . وقد نوهوا برجل في الجاهلية اسمه «مديح» حلو الصوت حتى دعوه « المصطلق » . ولكن لا تحسب هذا التنويه بها ، رفعها الى مراتب الشجعان والاجواد ووضعها في منزلة بين التكريم والغنى ، لا ! ولكنها ينوهان بها حين ضرب المثل بحلاوة الصوت ، لا على وجه الاجلال والاكبار .

— ومن قيان العرب قبـل الاسلام الجرادتان اختلف الرواة فقائل انهما لعبد الله بن جدعان غنتاه ثم وهبهما لامية بن الصلت الثقفي « رواية الاغاني » وقيل انهما لملك العرب النعمان « على رواية اليازجي » وقيل انهما كانتا لمعاوية بن بكر العمليقي سيد العمالقة الذين كانوا نازلين بمكة قديماً « على رواية الميداني » . ورواية الميداني في هاتين الجرادتين اقرب الى ما جاء في تاريخ اسرائيل عن جيل الجبابرة اصحاب الحروب والغارات من بني آلوهيم رجـالا وقايين نساء .

والذي نأخذه من تاريخ الجرادتين في بحثنا هذا انهما قينتـان من الاماء ، ومع بصرهما بالغناء لم ير صاحبهما ان يضن بهما على رجل آخر ، فوهبهما اياه كأنهما بعض السلع . ولا تزيد قيمة الموسيقية

الحسناء عند العرب في ايام الجاهلية عن آلة الفونغراف اليوم ، كأن لا روح ولا عاطفة لها مهما اجادت واثارت في غنائها الاشجان ، ولتحمد الموسيقية اليوم حظها اذ لها في الحياة غير هذا الشأن !

كانتا من الاماء ، وهذا يدل على ان الحرائر كانت الموسيقى تغض منهن ، لان الموسيقى التي تتعرض لها القيان هي الموسيقى الغزلية ذات النغم المتكسر الوسنان الساهي الناعم المتعطش لدم الشباب الحار ، فهو زفرة من زفرات الصبا الجامح وآهة من آهات الحب المستهتر الهائم في طلب الخطية الرائعة الفتانة ، وهـذا حظ ملوك العرب ومن قلدهم ، من الغناء الغزلي الذي يعجبك ويخجلك احياناً .

ولا تحسب اذا قلنا ان القيان كن من الموسيقيات اننا نقصد بهذا القول الى الموسيقى بمعناها الفني ، فقد عرفناك ان الفن الموسيقي لم يعرفه العرب ، ولكنا ونحن نعرض لموسيقى العرب في الجاهلية واوائل الاسلام ، نقصد الشعر العربي في التشبيب والغزل ، يمشي بين الحفل ، في حلل جميلة موشاة من حلاوة الصوت وجمال الايقاع .

ولا تحسب اننا في الجرادتين نرجح رواية على اخرى ، ولكنا جئنا بهما مثالا على ان الغانيات من المغنيات كن اماء غير حرائر ، ولم يقل التاريخ العربي في ايام الجاهلية وصدر الاسلام ان حـرة اتخذت الغناء مرتزقاً لها ، او باهت به او نسب اليها ، فالعرب كانوا على رأيهم القديم ينظرون الى الغناء انه متعة المتلهي لا يليق بذي حسب او بذات حسب ان يعرف احدهما به . وكيف يرضى العربي الابي ان يرى اميراً من امراء العرب قد تبـذل وجلس في مجلس شرابه ، غير محتشم في يوم صائف ، تحت ظلال بستان من نخـل ورمان ، وبين يديه فتاة كأنها دمية ، وقد وضعوا بين يديه خمره واكوابه ، وفي زاوية من زوايا مجلسه هذا رجل يغنيه ، وامير العرب ان شاء قبّل ، وان شاء ضم ، وبين هذين يرفع كأساً دافقة بالخمر المشعشعة ، طلباً المزيد في الطرب . فاذا تعطف على مغنيه فقد رماه بنظرة فيها صبابة من عطف ، كما تلقى الكسرة الى كلب الريف حناناً وفضلا فيحسبها المغني الشرف الاكبر .

انظر في هذا وانت العارف بخلق العرب ، وقل اي رجل من اصحاب العصبية يرضى بذل المغني هذا ؟ ومن يطيق من اهل النخوة ان يجلس بين اميروحظية ، رافعاً ستور الحشمة ، ليجمع بحسن صوته وجمال ايقاعه ، بين جسمين وقلبين ، ءالمآثما بينهما من تهتك وفسوق ؟

اذن فالموسيقى عند العرب في ايام الجاهلية وصدر الاسلام القيان من الجواري ، والمخنثون من الرجال ، وفيهم الاسرى ومن لا نسب لهم في العرب . وهذا مجلس الغناء الذي نهى عنه الحديث بقوله

« ولحون اهل الفسق »

وقد عرفنا لحون اهل الكتاب ، ولحون اهل الفسق ، ولكن الحديث نهى ايضاً في قراءة الكتاب الكريم عن ترجيع الغناء عامة وعن النوح خاصة . فلا بد من ان يكون للعرب تقسيم في الغناء معروف على قدر ما وصلوا اليه في بداوتهم ، فما تفصيل ذلك ؟

الجواب في كتب الادب نلخصه لك :

الترنم — وقد عرفته انه التغني بالشعر .

التغبير — وهو التغني بما هو دون الشعر .

وفي الترنم : الحداء ، وهو غناء الركبان قد حنوا الى الاوطان فأرسلوه نغماً فيه شجو وانين ، فهو من انواع الحزن ، ويعد اول مراتب النوح .

النصب — وهو من الحداء ولكنه منه ارق وقد عرفه اخيراً اصحاب الصناعة باسم السليك ولعل هذه اللفظة راجعة الى نسبته لتجارة يعرفها العرب . واذا كان النصب من الحداء كان هو غناء الركبان والمراثي — ويصلح له من الشعر ما جاء من بحر الطويل وقد برع فيه رجل من العرب من بني كلب اسمه « جناب بن عبدالله » فدعوه باسمه وقالوا انه الجنابي . فالنصب والسلك والجنابي واحد في اسماء متعددة . واست في حاجة الى القول بانه النوح المنهى عنه ، فلا يقرأ الكتاب الكريم به .

السناد — وهو اللحن الكثير الترديد والترجيع الغزير النغم والنبرات الذي يحتاج في الاداء الى دقة وبراعة مما يباهى به من قصر رزقه عليه ، وكان في صوته رفعة الجواب وسلامة القرار ، مما يجمع الناس على ايثاره .

الهزج — وهو اللحن المرقص الخفيف الذي يصاحبـه الشعر المفصل المتساوي الفقرات ، وهو الذي يطير على اجنحة الموسيقى الآلية من دف وطبل ورباب ومزمار ، وهو عندهم نهاية الابداع . وكان هذه الآلات تخلق من النغم جواً متجاوب الاصداء كأنه في تذوقه وحلاوة تجاوبه ، ما يسميه اليوم اهل الموسيقى بالاصطحاب وانه منه ولكن على بداوة .

وكان العرب اذا سمعوه ارقصهم واخذ من قلوبهم واستخف حلوم اهل المروءة فيهم . وهذا الضرب من الموسيقى العربيـة البدوية ، والسناد من الغناء المنهي عنه في الحديث الشريف .

ورجال الادب في العرب قالوا ان الهزج من ابداع العرب ، ونحن لا نرى معهم هذا الرأي ، فما عرف عن العرب انهم ابدعوا آلة موسيقية . وقد حدثناك حديث الرباب — ولست في حاجة لان

تحدثك حديث المزمار ، فانه لا يخترع الا من طريق العلم الصحيح بصناعة النغم وقياس الصوت ، وانه في موسيقى المصريين . وكذلك الدف والطبل والصاجات « او الصاجات بلغة الفن » فان قلت انهم لم يأخذوا هذه الآلات عن المصريين قديما فهم ناقلوها عن اليهود في خيبر خاصة ، وفي المدينة والطائف عامة ، وان قلت ان اختبار الشعرلهم واستعارة الموسيقى من اليهود ، قلنا معك ان هذا اصح ، فان كان هذا هو الابداع في المزج كما يقول رجال الادب والتاريخ العربي فلا نعارضهم على هذا التفصيل .

الان عرفت حكمة النهي عن قراءة القرآن بلحون اهل الكتاب ، لان لهم موسيقى لا يحب الاسلام ان يتشبه بهم فيها ، ويشغل اصحابه بالتخصص لها ، حتى لا تفتنهم بهجتها عما هم مقدمون عليه من نشر كلمة التوحيد ، وعن قراءة القرآن بلحون اهل الفسق تكريماً لكلام الله وتنزيها ، وعن الغناء حتى لا يستخف الحلوم ، وعن النوح حتى لا ينصرف السامع الى ذكريات الماضي الذي يحبه ويتوجع له فيفوته ما في الكتاب من عظة .

ولكن الموسيقى تعرض لكل ما تعرض لها النفس من مختلف العواطف . فهي تبكي وتضحك وترقص وتهدي وترسل الروح الى الملاء الاعلى ، ثم تطلعها على ابتسامة الابالسة ، بين الكروم المهصورة والاقار الساحرة الساهرة . فهل كان الاسلام مشجعاً للموسيقى العربية ام مثبطا لهمتها ؟

ولست في حاجة الى البحث عن الجواب . فان الاسلام كان في غنى عن موسيقى اهل الكتاب التي تملأ جوانب القلوب خشوعاً لله « بالترتيل » الذي وصف لك . وغناء اهل الكتاب اشرف ما وجد في الموسيقى — في نظر الدين — فلا غرو اذا كانت الموسيقى في مختلف الوانها الزاهية والباكية بعد غناء اهل الكتاب بغيضة الى الاسلام لان عرف العرب من اهل المروات والعصبية متفق مع الحديث الشريف ، فكان لا بد للموسيقى من ان تستخزي في ايام الوحي حتى الموسيقى الدينية بين يهود العرب .

ارأيت كيف كان حال الموسيقى في ايام الرسالة وكيف شغل اليهود وهم اصحابها عنها بالسياسة ؟ فلا تعجب بعد هذا اذا كان الترتيل اخذ على الموسيقى العربية طريقها .

ولكن هل ماتت الموسيقى في ايام الرسالة ؟ انها لم تمت وهي لغة الوجدان ، ولكنها كانت كالشعر وهي عند العرب وليدته . فكما ان الشعر بهت عند نزول الوحي فكذلك الموسيقى الغزلية وهي احب انواعها عند العرب لغلبة الدين الجديد عليهم .

ولكن السياسة تحرك العقول والعواطف ، وللاسلام خصوم اقوياء . اذن فقد تحرك الشعر واخذ يظهر في ميدان الهجاء ، والعرب يتغنون بالشعر ، فلا بد للغناء من ان يظهر ولكن لا في شغوف الغرام — فالوقت وقت حرب لا وقت هوى وعشق — بل في زرد من البغض وهجاء ذي ضرام .

القاهرة — ع . ع

من عشتروت

البحيرة

الدكتور حبيب ثابت

بحيرة عشنا على مائها ... نهيم في افياء ارجاها
في زورق حلو مجاذيفه ... صفاقة في الجو كفاها
ننشد فوق الماء انشودة ... في الشاطىء الحيران اصداها

بحيرة ، نامت عيون السما ... واشرقت فوق محياها
ومدت الانجم من برجها ... شفاهها لاثمة فاها
وانشد الليل اناشيده ... في الليل ، في الماء سمعناها
انوارها قاذفة اكرة ... بيضاء في الشطين مرماها

بحيرة كل اماني الصبا ... تمشي على زرقاء مسراها
كأن احلام الهوى صفحة ... خرساء بالماء كتبناها
ودمع ماضينا على خدها ... باللؤلؤ المنثور غطاها
وكل اسرار الهوى في الدجى ... في مائها الصافي دفناها

بحيرة كأس على ثغرها ... لذائذ الدنيا شربناها
كأس من الآمال شفافة ... حمراء في الليل كسرناها

بحيرة ، بل قفرة رحبة ... ضل الهوى في ليل ذكراها
سرنا وراء النجم في ليلة ... سكرى فتهنا ، مثلما تاها

بحيرة بحر على مائه ... مراحل العمر قطعناها
مراحل ايامها بهجة ... في ساعة الهجر نسيناها

بحيرة ، فاضت بآلامنا ... بدمعنا الجاري بمجراها
وازهرت في الشط ازهارها ... وصوحت لما قطفناها
يرتل الجدول في جنبها ... انشودة لم ندر معناها
تساقطت فيها نجوم الهوى ... بالجفن ، بالعين لمناها

فغل دامي الدمع في مائها ... فجرح العين وادماها .

المؤلفون الممثلون

مما لا شك فيه ان جميع المؤلفين المسرحيين ممثلون اذ يستحيل على المؤلف ان يضع قطعة مسرحية اذا لم يشعر ، وهو يكتب حوارهـا ، بعواطف الاشخاص الذي خلقهم ويتصور حركاتهم ويمثل بعقله الدور الذي سيخرجه الممثل فيما بعـد على المسرح . وبديهي ان القطعة المسرحية تتطلب انشاء خاصاً ، فكم قصصي مشهور فشل في كتابة المسرحية ، ذلك ان لغة المسرح ليست كافة القصة أو لغة الكتاب ، فقد يتفق لجملة مصقولة صقلا متقناً ، ومؤونة بالعاطفة والفكرة ان تسحر القاريء، ولكنها لا تحرك النظارة . امـا الجملة المسرحية فلا يجيدهـا الا « المؤلف الممثل » فراسين وماريفو وشكسبير والفرد ده موسه ليسوا كتّابا فحسب بل كتاب مسرحيون عظماء .

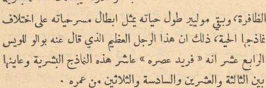
موليير

ومن يجهل موليير ؟ فبعـد دروس موفقة في مدرسة كليرمون اكبّ على الفلسفة وراح ينتجع من حكمة ابيقورس . وفي الوقت نفسه كان يفكر في المسرح ويتابع خزعبلات الممثل الهزلي سكاراموش . ومـا عتم الامر ان الف فرقة من اترابه لم يحالفه معهـا النجاح وسيبت له ديونا سجن من اجلها ثلاث مرات، ثم الف فرقة اخرى وراح يطوف بها الارياف . وبقي كذلك مدة اثنتي عشرة سنة . وفي العام ١٦٥٣ مثل في ليون مسرحية « الطائش » وهي اولى مسرحياته الكبرى فنالت فوزاً تاماً وشجعته على مواصلة التـأليف فوضع مسرحية « الغضوب العاشق » ومثلها في افينيون وناربون وغرينوبل وغيرها . وفي العام ١٦٥٨ مثل في مدينة روان مآسي الشاعر كورنيل بحضور الشاعر نفسه وسرعان ما ارتبط الاثنان بعرى صداقة متينة . وفي الرابع والعشرين من السنة نفسها مثل موليير امام العائلة المالكة وبحضور مشاهير ممثلي « اوتيل بورغونيا » مأساة « نيكوميد » لكورنيل .



موليير في احد ادواره التمثيلية

وعند انتهـاء المأساة التي صادفت نجاحاً كبيراً ظهر موليير على المسرح فشكر للملك العطف الذي ابداه لفرقته وسأله « بكل تواضع » ان يسمح له بان يختم الحفلة بألهية من تأليفه . فقبل الملك ، وكـان « الطبيب العاشق » فـاتحة النجاح العظيم الذي ادركه المؤلف الممثل فيما بعد . ومنذ ذلك الحين بدأت حياة موليير فاقام بباريس واخرج مسرحيته « الطائش » و « الغضوب العاشق » فاحرزتا مثل النجاح الذي احرزتاه في الارياف . وفي ١٨ من تشرين الثاني من العام المقبل مثل موليـير رائعته « المتحذلقـات المضحكات » وبلغ نجاحهـا حداً ضوعف معه اسعار المقاعد ، وأخذ المجد والثروة يبتسمان معاً للعبقرية



الظافرة ، وبقي موليير طول حياته يمثل ابطال مسرحياته على اختلاف نماذجها الحية ، ذلك ان هذا الرجل العظيم الذي قال عنه بوالو للويس الرابع عشر انه « فريد عصره » عاشر هذه النماذج البشرية وعاينها بين الثالثة والعشرين والسادسة والثلاثين من عمره .

ولم يقتصر موليير على تمثيل المهزلة فحسب بل مثل المـأساة ايضاً ففشل . ولكنه لم يفشل لان تمثيله رديء ، بل لانه اراد

ان يسلك فيه طريق الحقيقة، الطبيعة والبساطة في الحياة . على ان مزاعم ذلك الزمن كانت متربصة له وكان حساده من الممثلين المتكلفين واقفين له بالمرصاد . ومجمل القول ان الفوز العظيم الذي ادركه موليير في مهازله الخالدة والاحترام الذي تمتع به في نفوس صفوة المفكرين في زمنه حملا الاكاديمية الفرنسية على التفكير في انتخابه ولكنها اشترطت في ذلك ان يقلع عن الظهور على المسرح، وكلفت صديقه بوالو مباحثته في الامر واقناعه بان حرفة الممثل لا تتفق وكرامة الاكاديمية . فرفض موليير قائلا لصديقه بوالو ان تحوله عن المسرح يقضي على حياة عدد كبير من رجال فرقته والمستخدمين في مسرحه وانه لن يفصله عن فرقته التي يحبها الا الموت . فلم يصر عليه صديقه ولا الاكاديمية ، وبقي المسرح محتفظاً بموليير حتى موته يوم ١٧ من شباط ١٦٧٣ ، عقب تمثيله للمرة الرابعة مهزلته الخالدة « مريض الوهم » .

شكسبير

وان تكن فرنسا تفاخر بانجابها المؤلف الممثل موليير فانكلترا ليست اقل منها افتخاراً بانجابها المؤلف الممثل شكسبير . ومن يجهل شكسبير ؟ فعندما اضطر شكسبير وهو في الخامسة عشرة من عمره الى الانقطاع عن دروسه لقلة ذات يده كان على جانب من العلم يسمح له بقدر قيمة الكتب التي يضعها الحظ السعيد بين يديه . ولما بلغ الثامنة عشرة تزوج من ابنة مزارع وبعد مرور ثلاث سنوات غادر ستراتفورد مع زوجته واطفاله الثلاثة . وكان شكسبير يحب الغابات والصيد وكثيراً ما كان يتوغل في حدائق السر توماس مطارداً ارنباً برياً او تيساً جبلياً . ويظهر ان النبيل الانكليزي عاقبه بقساوة فانتقم منه بقصيدة هجاء انتشرت في كل مكان ، ولما بلغه غضب السر توماس هرب الى لندن واول ما فكر فيه عند وصوله الى المدينة ان يبحث عن مأوى لفرسه فقادته الصدفة الى اسطبل جس بورباج . وكان هذا الاخير من مواليد ستراتفورد كشكسبير ومن عشاق المسرح فبنى اول قاعة للتمثيل في انكلترا واجرها لفرقة لورد لسيستر . واذ كان شكسبير في اقصى الحاجة الى كسب العيش استهل عهده في لندن بحراسة جياد الاشراف الذين كانوا يأتون لحضور الحفلات التمثيلية . وهذه المهنة الوضيعة صورت لروبرت غرين فيما بعد انه يستطيع اهانة شاعر روميو وجوليت بتلقيبه اياه بالسائس .

وسرعان ما وطيء شكسبير خشبة المسرح بفضل نجل بورباج الذي كان في عداد فرقة لورد لسيستر وراح يحضر التمارين . ثم عين ملقناً . وما عتم الامر ان ادهش الممثلين بملاحظاته الدقيقة فعهدوا اليه بادخال تعديلات على المسرحيات القديمة .

وفي ذلك العهد لم يكن النتاج الفكري محمياً كما هو اليوم ، بل كانت كل مسرحية تباع تصبح ملك الفرقة التي تشتريها، تتصرف بها كما تريد فتحذف منها وتضيف اليها ما تراه حسناً . وما بلغ شكسبير الثامنة والعشرين من عمره حتى اشتهر كممثل ، وقد اطرى دراتين وشتلي وبن جونسون نفسه ، وهو من اقسى مزاحمي شكسبير ، مزايا هذا الاخير كممثل هزلي وتراجيكي . وفي عداد الادوار التي احرز فيها الشاعر نجاحاً كبيراً دور ملك الدانمارك في «هملت» وقد اكد روف «ان شكسبير بلغ بهذا الدور قمة الفن» .

وليم شكسبير

والى جانب المؤلفين الذين تعاطوا حرفة التمثيل يقوم عدد من الكتاب المشاهير ومن غواة التمثيل كفولتير وغوتي . فقد انشأ فولتير في فرني مسرحاً صغيراً كان يلهو بتمثيل مآسيه عليه ، وكثيراً ما كانت حفيدة كورنيل الكبير التي اعطاها مهراً وزوجها تشترك في تمثيل مسرحياته كميروب وغيرها . وكان الشاعر غوتي ايضاً يمثل احياناً امام جمهور من صفوة الناس ويختار المسرحيات والممثلين ويعنى بالالبسة والزينة . ويرجع اليه والى صديقه الشاعر شيلر الفضل في تكوين ناشئة من الممثلين . وقد بقي الى شيخوخته المجيدة يعنى بالاخراج المسرحي وبكل ما يختص بفن المسرح .

اما المؤلفون الممثلون في الوقت الحاضر فأشهرهم كورتلين وتريستان برنار وساشا غيتري والشاعر جان سرمان، ولويس فرنويل ومرسيل اشار ورنه فوشوى .

اسرار بلادي

بقلم زكي المحاسني
استاذ العربية في تجهيز دمشق

◆

دمشق ، يا لك من ساحرة شرقية ذات عطور . نحن ابناؤك قد لا نرى سحرك ، وككل ابناء الشرق لا نحس بروعة محاسننا . اننا لنعايش هذه المحاسن ونشاهدها في الاماسي والاصباح . نفتح الاعين عليها منذ ندرك معنى الحياة ، ونغمضها حين نموت ، ونحن في فسحة ذينك العهدين لا نعرف اسرار ذياك الجمال . فلكم من مباهج قد ألفناها ، لكننا لم نرسل بانظارنا الى اعماق فتونها . حتى اذا هبط ديارنا رجل من الغرب لهيف النظر الى هذا الشرق الذي كانوا يحدثونه عن عجائبه وطيوبه ، رأى بلمحة عين من اسرارنا ما لا نراه نحن في طوال العمر . ولعل تعليل هذه النقيصة فينا هو استهتارنا بما عندنا ومحبتنا لكل طريف غريب .

لكم جلت في ازقة دمشق منذ كنت يافعاً . فقد ولدت في حي مئذنة الشحم . وهناك بيوت قامت على الساباط تتناوح حيطانها وتتسع ساحاتها . يدخل اليها من فجوات مظلمات يحني المرء فيها وفوق رأسه ظلة من السقائف . في هذه الدروب اصاب نعلي الوجى . وطال ما خفقت فيها ذهوباً وجيئة فلم ار منظراً في يوم من ايامي يبهج عيني او يخلب عقلي ، او يسحرني .

ولقد عرفت بعد حين ان الروائي الاشهر رومان دورجليس من اكاديمية غونكور ، زار بلادي فقال في كتابه الذي سماه «قافلة بغير جمال» : (ان اشخاصي لا يتركونني ابداً . اني بصحبتهم قد زرت دمشق وهم احياناً ادلائي واحياناً انا اقودهم . واذا حللت ضيفاً على احد فقدم لي خمرة لبنانية مذهبة فاني انسى الناس الذين هم هنالك وابتدىء في جمع اشباحي بفناء الدار ولا تستطيع اية محادثة ان تلفتني عن هذه الروايات التي لا ترى . ان ايامي التي قضيتها في حي الميدان وفي ازقة الشاغور في الشام لم تكن الا من اجل اشخاصي .

لقد دخلت دمشق عند ميل الشمس الى الغروب ، وكان فكري في موسم من مواسم عيده ، منتفخاً بالاحلام وكان قلبي طربا . على ان الناس الذين شاهدوني وحيداً في صدر السيارة كانوا لا يعلمون انني اجرر ورائي حاشية فخمة تخفى على اعينهم ، حاشية يزدحم فيها البدو بعباءاتهم الثقيلة وركاب الليل وعليهم الصدر الحمر ، ونساء محجبات ، واميرة شامية تكبح جوادها بيد قوية . .)

قرأت هذا حين تذوقت الادب فرأيت دورجليس ، ذاك الروائي الجبار الذي زار الشام قد وشوشته سواحر الشرق فأرته الاساطير التي تسكن في الشام منذ عهود بعيدة ، والتي لم يستطع ان يراها شامي واحد . لقد سار الاديب الفرنسي في شوارعنا وكأنت تلك الشخوص له حاشية تمشي وراءه . وشاهد النساء المحجبات وكأنهن مفاتيح اسرار هذا الشرق .

فرحت من بعده التقط المفاتن التي كنت اراها ولا اعرفها . فاذا زرت حلب جلت في اسواقها . فوقفت بقيصريات الصاغة فاذا هي كلاقبية لها ابواب قصيرة معقود عليها حنايا الاشجار ، وسقوفها واطئة ذات قباب . وثمة رأيت فواتن نساء محجبات ، كن اذا اقبلن على باعة الجواهر كشفن عن خد اسيل ، وطرف كحيل ، وايد بضة ، فدخلن الدكاكين الكامدة ، وجلسن يصففن على لباتهن القلائد ويضعن في آذانهن الاقراط بعيدة المهاوي . واحلى ما اعجبني الخلاخيل فان نساء حلب ما زالت فيهن من تزين معصم رجليها بالخلخال الجوال .

ثم انحدرت الى سوق الحبالين ، فاذا سوق ما رأيت اضيق منها ولا سمعت . يكاد الجالس على طرف دكان من اليمين ان يمس بركبتيه الجالس على طرف دكان من اليسار . وكنت اسمع وانا اجوز بهذه السوق احاديث يتجاذبها البائعان المتثاقفان ، فيقصران بها طول النهار والحبال من فوق رأسيهما متدلية كالعناقيد من

الدوالي . ومن يدري ? فلعل هذه السوق عرفت من اسرار هذا الشرق ما لا يراه الا اديب من الغرب . ومضيت ذلك ديدني اذا جئت هذه البلاد اتفرس اوجهها علي ارى فيها السحر .

وحين جزت بحماة التي جاز بها امرؤ القيس قبل خمسة عشر عصراً وقفت على العاصي اذكر شعراءه من اقدمين ومحدثين . واسمع ترانيم الناعورة فاحسبني في هيكل عبادة ترتفع منه التراتيل الموسيقية الشاجية ابد الدهر لا تهدأ ، فتملأ هذه البلدة الشرقية الساحرة التي لا تزال عليها آثار البادية . وحين سألت النواعير عن سر بلادي رددت انشودتها في شعري فقالت :

ناسجات الزمان طول الاوان
دائرات ولحننا غير فان
قد غططنا الرؤوس في الماء دوماً
وبللنا به الصدور الحواني
واقمنا مثل العرائس في البحر —
تناغت برائعات الاغاني
ننقل الري للتراب فيرتد —
جناناً يا حسنها من جنان
ابداً ننشد النشيد لعاصينا —
فيغدو المطيع بالالحان

ومررت في حمص بسوق البازركان تحت سقف مقوس عال فأقبلت اشتري شرشفاً من الحرير الملتمع الوهاج . وكان البائع ذا عمامة صفراء من الاغباني قد لبس القمباز الالاجا وادار حول خصره شملة من الشال فنشر امامي الديباجة الوهاجة وجعل يروي السيرة عن خيطها وحبكه ونسجها وحوكه ، ومنوالها وصانعها ، ولحمتها وسداها . فقلت لنفسي ان في جيب هذا البائع تاريخ حمص واسرارها ، وفتنتها واخبارها وهو لا يدري .

وجئت صيداء الميناء ، وهي كهلال من الحلواء اخذ البحر يداعبه بلسانه فمشيت عند الاصيل في عشية حلوة رقيقة النسيم على الشاطىء . اطبع قدمي مياسم على صفحات الرمال حتى اخذت عيني دخانا يعقد في الجو من بيوت اسندت على ظهورها القلال والجرار ، وصففت الحقاق والاباريق . فقلت هاهنا الفواخير فدخلت واحدة منها بين يدي البحر فشاهدت رجلا قد اسن . غاص في الارض بحفرة الى نصفه ، وادار برجله دولاباً فيه عمود تجول على رأسه الجرة . فنادى اجيراً له فأقبل بعجين من طين ، ركبه في رأس العمود وأخذ يداعبه باصابعه وهو يدور . فاذا هو يبدو جرة سخيفة ثم يعظم امرها فتكون لها حفة مقلمة ويستدير جوفها ويتسع اطارها ثم يضيق فمها ويصغر فاذا هي خلق سوي . قد كان كتلة من طين فأصبح آنية للشراب .

فذكرت تلقاء ما اشاهد عمر الخيام، يرحمه الله ، وحسبته قد رد في اهابي . فسألت الرجل او تكتب وتقرأ . قال كلا لكني افهم ما يقرأ لي واسمع « العلم » . فقلت ان هذا الطين الذي تجبله وتصوغه قد اخذ من ارض ربما كانت مقبرة ، فهو عظام الاموات وذرات الاجداد . فلم يعجب لقولي . وانما زادني فلسفة زاد بها على الخيام فقال :

— اننا ندخل هذه الجرار التنور ونشويها بلهيبه فنحرق اجدادنا ، ولقد قال لي ابي يوماً وكان هاهنا قبل ستين عاماً في مكاني :

— يا بني ، انه لم يغتن احد من هذه الحرفة ، لان من حرق اجداده عاش فقيراً ومات فقيراً . ثم اندفع الرجل نحوي بالشكوى ورجله تدور في صنعته فقال :

— ما كسبت والله يا سيدي طوال عمري ، الا قوت يومي . فودعته وانا اقول : بحسب هذه الجرار ان تنتقم . وكنت اصيخ بالروح اليها وهي مصفوفة كأنها موميات مصرية خالدة الى السكون . ولعل بينها صوتاً قد سمعه قبلي الشاعر الفارسي فقال بلسان مترجمه :

امس ابصرت جارنا الخزافا
يجبل الطين كيف شاء اعتسافاً
وكأني اسمعت بين يديه
صوت ذات مظلومة تشتكيه
قالت ارفق فأنت طين وماء
لا تسمني فيما صنعت عذابا

فرددت الفكر الى اسرار الشرق . فوجدت فلسفة الخيام بنت هذه الاسرار . فبت راضياً مغتبطاً بانشاد الرباعيات ، غير حاسد لدورجيلس الذي كنت احسبه وحده رأى اسرار بلادي .

دمشق — زكي المحاسني

اغاني اللبنانيين الشعبية

بقلم شفيق طباره

◆

عندي في بدء هذا البحث ملاحظة ارى من الخير ان ابديها ، وهي انني سأقصر الكلام على الاغاني التي شاعت قبل حرب ١٩١٤ في لبنان ، ثم اقرر ان اللبنانيين كانوا يومذاك كما هم اليوم يشتركون في كثير من الاغاني مع معظم الاقطار العربية ، على ان هنالك اغاني تحمل الطابع اللبناني الخالص تفرد بها ابناء هذا البلد وتناشدوها بلهجتهم المحلية زمنا طويلا ، فاصبحت تعرف بهم دون غيرهم . واني سأكتفي بالوقوف عند نماذج من هذه الاغاني لاعرض صوراً صادقة عن الحياة اللبنانية ، من جيل كاد يطويه الزمان ويجعله في خبر كان .

لا جدال في ان اسلافنا اولعوا بالاغاني وتفننوا في نظمها وافاضوا في احاديث الحب والغرام ففرجوا عن صدورهم بانواع الزجل فسمعناهم يئنون في (المعنى) ويتنهدون في (المواويل) ويتلاوعون في (العتابا) ويبكون في (الميجانا) ويضحكون في (القرادي) فأرونا من عفو القريحة فنوناً من القول وضروباً من المعاني حسبكم ان تتأملوها قليلا لتشعروا بخفة الروح وحلاوة التعبير وبراعة النكتة في هذا الفن الغنائي المحلي الممتاز .

فمن الاناشيد التي تدخل في باب الفخر والمديح نوع يسمى (الزغاريد) تغنيها بعض النسوة في الاعراس وتقول فيما تقوله هاتفة للعروس :

اوها — يا عروس نيال العريس فيك

يا عرق لولو جوهر بين عينيك

وحياة حسنك بروحي صرت افديك

وتلملم الحسن في مركب واجا ليكي

واجو بنات المدن تا يتفرجو عليك

لا هن مثلك ولا بيتشبهو ليكي

اوها — يا عروس ما بحتاج وصيكي

لا تخلي احد في الدار يشكيكي

هيدي حماتك حبيها وعزيها

وتكون عندك نظير امك تربيكي

اوها — حمرا وبيضا ولبست ثوب كتاني

والمسك في جيابها ممزوج ريحاني

ما قلتلك يا عريس ما لها ثاني

هي النجمة المشرقة وانت الكوكب الثاني

ثم تقول للعريس :

يا عريس يا تلميذ (عين ورقا)

يا ذهب اليوسفي مصرور بالورقا

ريتو اللي يبغضك يوقاع في حرقه

ويروح مع الغيم لا لمعه ولا برقا

وتخاطب الحضور بقولها :

اوها — اهلا وسهلا يا ضيوف عزاز

انتم عزاز جايين من بلاد عزاز

والطير ترحب لكم حتى طيور الباز

انتم احلى من المال لو كان صاحبه معتاز

اوها — عقبال فلان ياناس كلكم قولوا

شو هالشب الظريف ومزينو طوله

لو فم خاتم ذهب محبوك باللولو

عقبال فلان وخياته يغنولو

وتقول لوالد العريس :

اوها — عصفوري عالداليه وبلبل يترغله

واليا خد بنات الاصل الله يسهله

لروح انا لابي العروس وقله

قامة عروستنا بتسوى منزلك كله

وتقول لاهل العروس :

اوها —نحنا انزلنا منزل عالأجاويدي

وما ناخذ الا الاصيلي وبيها جيدي

نحنا ان اخذنا مناخذ بنت تعجبنا

تطلع وتقول لعمها : يا سيدي ..

وتقول عند جلوة العروس :

قومي تخطري يا زينا	يا ورد جوا الجنينه
كبش القرنفل يا عروسه	والورد خيّم علينا
قومي البسي عقد اللولو	شب الحلو يسلم طوله
سبع بنات يغنولو	وهالحلو رمح الردينا

وفي زفة العريس يقولون :

يا اهل الحميه	وعزايم الله القويه
يا سامعين الصوت	لا يقطع لكم ذريه
بجاه (طه) خير البريه	وان كان هالرايه البيضا الجليه
راية فلان ...	بيض الله وجهه

ويقولون :

يا لطيف الشمائل	آه يا عيني
بك هاجت بلابلي	آه يا عيني
وانعطف ايها الغزال	آه يا عيني
لا تلمني العوازل	آه يا عيني

وعند دخول العروس الى بيت العريس ينشد المنشدون :

جبنا العروس وجينا	يا بو العريس لاقينا
العروس نحنا جبناها	وعالبلد فرجيناها
وللعريس سلمناها	وما عاد يعتب علينا
يا خلي قبل الغروب	خلينا نسير بسرعه
والعروس سكر بتذوب	الله يحرس هالطلعه
عاجبينا شفنا مكتوب	بالعالم احسن بدعا
بمنظرها يشفي المكروب	شمس وضوت علينا

ثم انهم في كل ما كانوا يرددونه في مجالس الانس من الاهازيج الرقيقة والقصائد الحماسية ذكروا محاسن المرأة وتغنوا بما ظهر واستتر من اعضاء جسمها . ولما كان الحياء الذي فطروا عليه يمنعهم عن التبسط في شرح ما تمتعت به اعينهم من جمال الابدان استعملوا الكنايات والتشبيهات، فشبهوا خدود الملاح بالتفاح والنهود بالرمان والعيون باللوز والانامل بالخيار والفم بالفستق وغير ذلك من المحسنات البديعية التي تدور حول الفاكهة فتبدو الاغنية الواحدة كأنها بستان طافح بصنوف الخضر والوان الثمار ...

وكانوا في الغالب يكنون عن الحبيب بشجرة المشمش والحبيبة بشجرة الخوخ كقولهم :

بداركم مشمشة وبدارنا خوخة

يا شجرة المشمشة مالت على الخوخه

فنجان من ريقكم للصفرا والدوخا

فنجان من ريقكم يغني عن الميا

وكثيراً ما كانوا يرمزون في اغانيهم الى قدّ الحبيب بالغصن الرطيب فيقولون (يا محلا الغصن يميل) ويقصدون بذلك الجمال الاهيف الذي هو كغصن البان ، وعنق الغزلان وما شاء الله كان ..

واتخذ اسلافنا الذهب وسيلة لاغراء المرأة ، والذهب هو فتنة النساء في كل دهر لانه اكثر ما يجمع لاجلهن واكثر ما ينفق عليهن فدسوه في الحب واستعملوه في الاغراء بدليل قول القائل :

محبوبتي بالسما ما لي وصول ليها

خشخشتلها بالذهب ركضت ءايديها

لا تعجبوا يا خلق بحبتي ليها

محبوبتي من صغر متولعة فيها

وكان كثير منهم يعمدون في حبهم الى الارهاب فاستمعوا الى احدهم حيث يقول :

لاطلع لراس الجبل وانشر سنجق بهواكم

وامسك بيدي جوز فرود وقوص كل من عاداكم

وكانت حوادث الغرام تنتهي في بعض الاحيان بزواج الخطيفة وذلك بان يدبر العريس حملة على عروسه فيهجم عليها في جمع من اهله واصدقائه ويختطفها من احضان اهلها بالقوة . قالوا في ذلك :

يا غزيل يا بو العبا يا غاوي يا معزبا

يا حلوة ذبحتيني بكلامك مرحبا

طلبتي مني البشلك ومنين نجيب البشلك

لولا خوفي من اهلك لاخذك غصيبا

وكان اللبنانيون مثالا للمروءة وكمال الرجولة والتضحية يوفون بعهد المودة والهوى ويعنون براحة النساء . فكان الرجل منهم يتعب لكي تستريح المرأة ، وكان يشقى لكي تهنأ وتتنعم . اما النساء اللبنانيات فكن يجمعن يومئذ الى الجمال الطبيعي محاسن النفس ،

ويحببن معاني الرجولة في الساعد المفتول والشارب المعقوف وبيان ذلك ان بيئة لبنان بيئة كثر فيها البطش وكثر فيها الكر والفر. فلم يستطع ان يروج في سوق النساء الا البطل. وعلى هذا كان نساء السلف يسرهن منظر الخنجر في زنار الحبيب يدلكم على ذلك قول احداهن تتحلى بحسن حبيبها معجبة مطمئنة :

شفت حبيبي عالمينا   شاكل فرد وسكينا

ولقد عانى الجيل القديم لوعة الشوق، فمن قائل في كتم الهوى :

من هون لارض الدير   من هون لارض الدير
والسر اللي بيننا   ايش وصلوا للغير
وان كان ما في ورق   لاكتب على جناح الطير
وان كان ما في حبر   بدموع عينيا

ومن قائل في الغيرة :

يا نخلة اللي بدارنا طورك اسد
وتكسرت الاغصان من كتر الحسد
انا زرعت الزرع جا غيري حصد
يا حسرتي ردوا القمح لعدالنا

ومن قائل في الهجر والصدود :

لطلع ع راس الجبل   واشرف على الوادي
وقول يا مرحبا   نسم هوا بلادي
يا رب يطوف النهر   ويعتلي الوادي
اعمل زنودي جسر   تمرق البنيه

ومن قائل :

يا رايحين عا حلب   حبي معاكم راح
يا محملين العنب   فوق العنب تفاح
كل مين حبيبه عنده   ونا حبيبي راح
يا رب نسمة هوا   ترد الحبيب ليا

والظاهر ان الشاعر يجهل فن التعبئة اي (الامبلاج) اذ لولا ذلك لما وضع التفاح فوق العنب في قوله (يا محملين العنب فوق العنب تفاح) وان كان الامر كما يقول ما كبر الظن ان عناقيد العنب وصلت بوقتها الى مقرها « مخبصه » ..

واستنكر ابناء لبنان – فيما مضى – من المرأة ان تشكو في الغراميات فما ظفرت في اغانينا الشعبية القديمة بنظم صادر عن لسان المرأة الا القليل ومع ذلك فقد اشتهر منهن من نسميهن اليوم (كواكب) كن موضع اعجاب الرجال ومحور احاديثهم عرفت فيمن عرفت منهن بنت الحلال :

الروزنا :

عالروزنا عالروزنا كل الهنا فيها   شو عملت الخاينه الله يجازيها

وحنينا :

يا حنينا يا حنينا يا حنينا   ضحكت حجار الدار اغيو حبابنا

وماريا :

يا ماريا يا مسوسحة القبطان مع البحرية   عود يا زماني عود

وذاع صيت (سالم) بين الذكور :

لابعث سلامي لسالم   ما حدا من الحب سالم
ونا بجرحي متألم   دلوني على حبيبي

وكذلك برهوم :

برهوم يا برهوم يا بو الجديله   والعاشق ما عنده ياويلي ولا عشا ليله

وقصة المرحوم برهوم مأساة تحولت على مر الزمن الى ترنيمة وما زالت الام اللبنانية تناغي بها طفلها الرضيع حتى اليوم.

ومما لا ريب فيه ان قيود الحياة الاجتماعية كانت شديدة الوطأة في ذلك العصر، اذ ان اقل حركة مجونية تأتيها المرأة كانت تجعلها عرضة الاذى والخزي والعار. من اجل هذا كانت حوادث الغرام في المجتمع اللبناني تجري تحت جنح الليل وذلك بعد ان يتحمل العاشق المشاق ويقتحم الاخطار، يدلكم على ذلك قول من قال :

خشيت انا ابيتكم   بعد العشا بتختفي
لقيتكم نايمين   وسراجكم مطفي
مديت ايدي عالحبق   لاقطف انا نتفي
صاحت بنيه لكم   جتنا حراميه

ورحم الله عشاق الجيل الماضي فقد قاسوا من شدة الوجد ما جعل اغانيهم تفيض بالشكوى من الحرمان ولا تنسوا ان لبس الملاءة والازار كان من التقاليد المفروضة على النساء اللبنانيات في المدن بينما كان خمار اسود يستدير حول الرأس ويحجب الوجه وهو ما سمي بالاصطلاح : فوطة :

يا رب نسمة هوا تطير الفوطة   تبيان جبين العريض والغرة المكوية

انما كان اذا انعم الله على احدهم ولمح صدر احدى الغواني تنبه شيطانه فاندفع يتغنى بما وجد من لذة والم او غيرها من الوان الشعور :

كشفت على صدرها وقالت تعا تفرج
مخزن جديد انفتح وبضاعة فرنجيه

وكذلك كانت النظرة الواحدة الى صدر المليحة تثير العجب وتدعو الى الاعجاب . وتصوروا كيف تكون الحال لو مدّ الله في عمر الاباء والجدود وشاهدوا ما نشاهد في عصرنا من ضروب العري ومعالم التهتك والاستهتار .

وكان من عادة اللبنانيات يومئذ ان يكدسن الثياب على ابدانهن ويلبسن تحتها التنورة (١) وهي التي ألهمت القائل :

يا ام التنوره الحمرا	وداير مندارها خروجي
حرقتي قلبي يا سمرا	لمن تمشي وتموجي

والقائل :

جاي بوجه الصبح بطاق التنوره بتسوى جميع المدن من مصر للكوره

ثم اسمعوا — رعاكم الله — هذه الطقطوقة او الجورنال اللطيف في عالم الازياء :

لبست كبوتها شلحت كبوتها والله ما بفوتها
بنت الملعونة

لبست المشلح شلحت المشلح راحت تتسبح
بنت الملعونة

اما صفة (بنت الملعونه) هنا فلا ادري اهو نوع من الذوق ام من قلة الذوق ، لا سمح الله . على انه ربما كان يريد الشاعر المبالغة في الاعجاب ، وهذا نوع من المدح في معرض الذم كقولنا في كلامنا الدارج (يخرب بيتو ما احلاه) . . .

واجمل ما اعتزت به الغيد الحسان في ذلك العصر من معالم الزينة الشعر الطويل ، فكن يضفرنه بخيوط من الصوف وما زال الرجال الذين اطلوا على الستين يذكرون بالخير عهد (الضفائر) ويتحسرون على (الشنيور) .

يا طالعه من بيت ابوها	يا نازلة عند الجيران
حاطة الابيض والاحمر	والشنيور يضرب سلام

وكان من عادة النساء ان يطلين وجوههن طليا بالمساحيق ويستعملن الكحل ويضعن الزهر — رمز الحب — على الرأس . قال الشاعر :

الحنا الحنا يا عطر الندى	شباك حبيبي جلاب الهوى
ياخوفي من امك لا تدور عليك	لحطك بشعري واضفر عليك
وان جاتني امك وتسأل عليك	لحطك بعيني واتكحل عليك

والظريف ان هذه العاشقة تظل على هذه الحال قلقة لا تدري من فرط الخوف اين تخبي حبيبها الى ان تجعل منه في النهاية لقمة سائغة او حبة (ملبس) تدسها في فمها وتقول وعمر السامعين يطول :

وان جاتني امك وتسأل عليك لحطك بتمي واطبق عليك

اما الموسيقى في تلك الاغاني فليس فيها من جلال الفن ما يكفي لانها تشتمل على نغمة او نغمتين وتطرد على مثال واحد حتى يسأم منها السامع . ولهذا كان من شأن الاغاريد الشعبية انها ليست بخالدة ولا باقية على الايام . ذلك لان العنصر الاساسي فيها لا يرتكز على الفن الموسيقي بقدر ما يرتكز على الالفاظ والمعاني ولقد طربت نفوس الاباء والجدود لعزف العود ونقرات الدف وصوت الناي والقانون وولولة الرباب وانين قصب « المجوز » وقرقعة الطبل ودوي (الدربكة) وضجيج الصنوج وكثيراً ما كانوا يستعيضون عن هذه الآلات الموسيقية بالتصفيق .

وهنا يستطيع الباحث ان يستخلص من حاصل الاغاني الشعبية التي دارت فيما سلف على ألسنة عوام الناس في لبنان انها تمثل عاطفة الحب اليائس في الوان من التوجع وصنوف الحسرة والابتهال وتحفل بالتغني بالرجولة وصدق الولاء وتفيض بالغزل والتشبيب اللطيفين اللذين هما قوام الغناء وسر جماله ، يضاف الى هذا انها تصور لونا من الوان الحياة اللبنانية لعصر اجيز لنفسي ان اسميه ، عصر النخوة وسمو العواطف والصفاء وراحة البال ، ثم انها تعبر عن احساس جمهور اللبنانيين الذين كانوا يتحلون بالخلال العربية النبيلة والروح الشرقية السامية ، وقل ان يكون منهم اهل فساد او ضلال ، فكل اغنية من اغانيهم هي — على ما فيها من بساطة — سجل صادق فيه صور مختلفة من صور الحياة : فيه البهجة والاكتئاب وفيه الرضا والسخط وفيه صور جميع شواعر النفس الانسانية . انما صرنا نحن بعد ان ذبلت هذه الاغاني نبتغيها مادة فكاهية تبعث على ثغورنا ابتساماً فيه كثير من العطف على اسلافنا الغابرين .

على اننا لو اكتفينا بالزجل الذي ابدعوا في معانيه كل الابداع لظهر لنا ان اصحاب المدرسة الحديثة في الغناء لم ينشئوا فناً جديداً أروع منه وأجود . فمعظم (الاغاني الشعبية) والمنلوجات الشائعة في ايامنا عدلت — مع الاسف الشديد — عن الغزل والتشبيب الى الشكوى من البؤس الاقتصادي وكادت تقتصر على نقد ما قبح من الاحداث السياسية . ومهما يكن فالسياسة والبؤس اذا هيمن احدهما على الفن وسيطر على الحس تعطلت حاسة الذوق واختنقت الموسيقى وقضي على الغناء .

شفيق طباره

(١) التنوره كلمة سريانية وهي ثوب مستدير كالتنور تلبسه المرأة تحت ثيابها فيتدلى من الخصر الى القدمين .

نسيج العنكبوت

بقلم محمد حاج حسين
استاذ الادب العربي في تجهيز اللاذقية

.. مشى تلك المسافة بصبر واناة . كان الحر ضاغطاً ، لكنه لم يأبه لهذا اللظى المنبعث من تموز اللهاب . وهو يحدوه امل لذ يهدهده ، فيستنيم على خفقه . فالسيارة التي جاء بها ، لا تستطيع تسلق هذه التلال التي تؤدي الى القرية حيث تصطاف خالته مع اولادها . وسامية بنت خالته خطيبته ، وعني نفسه بلقاء خصب معها ، يبادلها القبل ويناجيها . وهو قد سيق الى هذه الخطبة بدافع التقليد والقرابة التي تربطه معها ، وان كان في قرارته لا يحلو له هـذا النمط من الفتيات الطافرات . فسامية ضحاكة مراحة ، وهو يؤثر الحزينة المتروية ، وهي شقراء بيضاء ، ويفضل الخمرية الاسرة .. لكن والدته اصرت على هذه الخطيبة .

واخذ مصباح عبد الكريم منديله يمسح به العرق الذي يخضبه ، وكان نشاطه يتوقف كلما قفز بين هذه التلال المتوردة يتحلى من جمال من جمال الطبعة الخالب . وسيريح نفسه من عناء العمل المتراكم الذي يرهقه وتلك الخرائط والتصميات ، التي كان يقوم بها كل يوم . فمهنته — مهندس — تقضي عليه بان ينصرف الى عمل دائب عسير .. وفي قرية خالته — العنابية — سيقضي ردحاً من الزمن ، في صفاء بال وراحة .

وسار المهندس ، في طريق متعرج ، تشابكت فيه الاشجار المورقة ، ثم كده التعب وارهقه المشي ، فتذكر ذلك الينبوع الثر الذي امضى فيه ايام طفولته ، وما عتم ان انحاز اليه ، يشق دربه فرأى الاشجار الخضراء التي كانت تتعانق في مدخله ، واحس بخدر يتمشى في اعصابه اذ ذكر انه سيعب من الماء النمير ، وسيأخذ غفوة تطرد عنه الرهق الذي مني به .

الا انه ما لبث ان تراجع مصباح عبد الكريم ، وهو في حيرة .. لقد رأى على حافة الينبوع منظراً مثيراً عجب له اشـد العجب : فتاة مستلقية ، ترفع رجليها ، تحركها بتؤدة ورفق ، وهي مستغرقة في قراءة كتاب ذاهلة عما يحوطها من خرير الينبوع الصافي ، ذي النغمة الضاحكة في تكسره على الحصباء .. وتأملها ، وتأملها ، وتساءل بلهفة : من تكون هذه الصبية ؟ وهو يعلم ان القريـة النائية لا يؤمها احد من المصطافين ، خلا عائلة خالته ، التي تمتلكها .

وفرك عينيه ، كأنه في حلم .. اتكون حورية ، هبطت من السماء ، في هذه الفينة ، لتنعم بجمال الدنيا الفاره ؟

ومشى وئيداً حتى اقترب منها في الجانب الآخر .. وكأنها شعرت بالحركة فتمتمت دون ان تحرك ساكناً : سامية . جئت؟

وترداد الحركة ، ولا تتلقى جواباً ..

وتتطلع الى مصدر الحركة ، وتلتقي العيون بنظرة ، تعقدها الدهشة .

ويشرع الاحمرار يونق وجهها ، وترف أهدابها ترسم ظلالا على خدها فتتراءى كأنها من بنات الجن .. وتمضي دقائق فيهـا صمت بليغ يعبر أجلى تعبير عن هذا اللقاء المفاجيء .

ويستطيع المهندس ان يقول : عفواً اذا ازعجتك ..

فلا تحير جواباً .

ويتابع : أليست هذه قرية «العنابية؟»

واحس ان سؤاله كان بارداً . فهزت رأسها بايماءة خفيفـة وقالت : نعم .

وتلجأ الى السكوت واطراقة تأمل في دفقة الينبوع الشادي .. واذا بصوت يدوي وخفق اقدام تدنو وعبير يتفاوح .. وينجلي الصوت وضاحاً صارخاً : وديعة ! وتطل سامية بقامتها التياهـة ، وحيويتها المتدفقة وتقترب من المهندس كأنها كانت تنتظره ، وتعانقه فيقبلها على خدها .

وتنفلت منه ضاحكة : اقدم لك صديقتي وديعة .. ابن خالتي وخطيبي المهندس مصباح عبد الكريم ..

وتمتد اليدان فيتصافحان ، فيشعر مصباح ان ناراً تسري في اعضائه ..

— ماذا تقرأين يا وديعة ؟ صرخت سامية . واستتلت : تقضين وقتك بالقراءة المملة .. الا تنزعجين ؟ اذا قرأت ساعة ، شعرت ان المدى تمزق جسدي .

فاجابت وديعـة : القراءة عون على النوائب ، فهي مسرح للاراء والمشاعر والفكر الانساني .

ويترامى صوتها موسيقياً كانغام عذراء وقعتها انامل موسيقي

موهوب ، فينحدر الى قلب مصباح كالغناء العذب .
وتطلق سامية ضحكة عابثة : هذا هراء .
ويغرق مصباح في تفكيره ، فذهنه النفاذ ارشده الى ان هذه الفتاة الخفرة تمتلىء بالروح والفن ، والفهم الاصيل للحياة ، بخلاف خطيبته التي لا يهمها الا المظاهر الجوفاء : الثياب الحريرية الغالية تفرغها على جسدها ، والطيوب تتضمخ بها ، والسهرات الراقصة وما أشبه .
وقالت وديعة : سامية .. اذا شئت سأخلي لك الجو مع خطيبك ..
وتتهادى الانغام الشادية مرة ثانية في فؤاد مصباح الظمىء ، ويتمنى ان لا تبرح المكان لتملى من فتنتها اليقظة التي تزداد كلما صوب نظراته اليها .. وكان الاحمرار يسرع اليها كلما القى نظرته الخاطفة ، وتتراءى بلونها الخمري وعينيهـا الواسعتين العميقتين ، تومضان برغائب نفسها الخفية ، كتمثال حي يجسد الجمال الخصيب .
واستدارت وديعة تقول : سأخبر امك يا سامية بمجيء المهندس مصباح ، لاكون اول من زف اليها البشرى السارة ..
وشيعها مصباح وهي تقفز بخطوات متزنة فيها جمال مغرورق لا متناه .
وارسل تنهدة وتساءل : من تكون هذه يا سامية ؟
— زميلتي في المدرسة الداخلية ، وقد عزمت عليها ان تقضي فصل الصيف معنا في القرية ، فوافقت بعد الحاح ، واني لاحبها لاديها الجم ونفسيتها الطيبة .
واندفعت تطري مواهبها ، ومصباح يصغي بكليته ، مغتبطاً قريراً . ولو نظرت سامية الى خطيبها بامعـان لرأت البريق الذي يخفق في عينيه كانه يتلقى النعيم .
ومضت ايام ، وعقبتها ايام ، في غضونها لامس الحب لاول مرة قلب مصباح ، ذلك الحب الجارف الذي لا يعرف هوادة ، ويتذكر اللحظات السعيدة التي كان يقضيها بقرب وديعة ، تقرأ له بصوتها الفاتن ، وتحدثه شتى الاحاديث الدالة على ثقافة مستفيضة واطلاع واسع وروح سرية وديعة كاسمها الوديع .
ويوم جاء ابن خالته من الصيد بطيور متنوعة ، وقدمت هذه على مائدة العشاء في جلسة عائلية ، قالت خالته : سلمت يداك يا ابني على هذه العصافير الغريضة اللحم التي اصطدتها .
وصرخت سامية بصوتها التياه : ان اخي فؤاد صيـاد بارع يسدد الرمية .

وانتظر مصباح رأي وديعة التي تجلس أمامه ، يتسرق اليهـا النظر حالماً متأملاً .. ولكنها لم تقل شيئاً . فسألها بلهجـة تتعثر بانفعالات جمة : ما رأيك يا آنسة وديعة في الصيد ؟ وهذه العصافير التي نأكلها ؟
وكان في صوته رعشة احست بها بدورها واجابت : حقاً ان آرائي غريبة ، فانا لا احب الصيد وأرى في قتل الطيور الصادحة جريمة نكراء . فلنذرها في البراري تنعم بحريتها الطليقة .. ومن يدري ان هذه العصافير التي نأكلها ، لم تخلف اليتم في صغارها التي تنتظر اوبتها بفارغ الصبر ؟ . حرام ان نقتل هذه العصافير الامنة .
وافلتت منه كلمة : برافو .. برافو ، وديعة .
ورنت ضحكة عابثة ، قهقهة سامية التي كانت تحزه وتبعده عنها كثيراً .
ويخلو مصباح الى نفسه وينعزل في آفاق القرية .. وهو في صراع منكر ، ينشب في اعماقه : لا يقدر ان يتخلص من اسر وديعة ويفلت من حبها الحاد الذي سد عليه المسالك ، فكانت الصعاب تتعقد في طريقه . كيف الخلاص من قريبته سامية ؟
ويتضح له جلياً انه لا يستطيع الزواج منها ، فروحها لا تنسجم معه ، والكائن الذي خلقه الله ليقطع معه مرحلة الحياة ، هو وديعة الرقيقة ذات الجمال الخالد ، فيجب ان تكون زوجه .
ولاعته الافكار تتناحر في اعماقه وتجهده . ليس له من نجوة من هذه الازمة المستحكمة . ففي كل صباح ، يستفيق على طلعتها البهية واحاديثها الممتعة ، وعبثاً يحاول ان يطرد عنه طيفها ويعتزم عزماً اكيداً على هجر القرية ، ولكنه لا يستطع ان يحقق هـذه الامنية . فهو اذاً يؤثر العزلة . وكان يتغلغل في اقاصي القرية ، تحت السنديان يحلم ويحلم ، ولكي يتخلص من الكابوس المزعج ، يعقد نيته على مفاتحتها بالحب الذي يتأكله . وماذا يكون ، اذا ترك خطيبته سامية ، فليس بأول من يصنع ذلك ؟
ولكن الجلد يخونه ، فيتماسك ليفضي اليها بعاطفته ويتردد ، ويتردد ، وكلما اجتمع معها في خلوة وعول على التحدث عما يكنه من لاعج الهوى ونازعة الحب تراجع وتراجع قسراً عنه . ولعل لهذه البراءة التي تنصع في محياها اثراً قوياً في دفعه . وهجست في رأسه هاجسة آلمته : من يدري اذا كان قلبها الطاهر قد انحاز الى آخر ، ينغم له ألحان العشق ، مـاذا يكون موقفه ، اذا دفعته وصدفت عنه ؟ أيقتل الحب الوليد بين جوانحه ، ويسمم حياته فتتحول الى قفر جديب ؟

واشتدت نقمته على سامية ، التي اخذت نفرته منهـا تربو وتطمو، ولو لم ينتصب امامه هذا الشبح المخيف لكان الامر سهلا ميسوراً ، ولكن الخلاص من سامية صعب ، لا تحمد مغبته .

وكان المساء الساجي يرف على القرية حين خرج لا يعي ، وانحـدر الى الوادي ، ويا لدهشته اذ رأى وديعة جالسة تحت السنديانة تتأمل الطبيعة الذاهلة .

— وديعة .. أسعدت مساء .

قالها وارتج عليه .

استقبلته باسمة ، ومضت دقائق ساد الصمت خلالها ، ولكن عينيه كانتا فصيحتين عما يكنه من دفين الآلام .

واخيراً خطفت في رأسه فكرة تراخى لها : سيخطبهـا من اهلها .

وقال: وديعة ، اريد ان اسألك سؤالا بسيطاً .. اين يسكن اهلك ؟ وماذا يعمل والدك ؟ وأين مقره ؟ سأحدثه بمسألة خاصة .

وسكت . وتأملها ، وهو يكاد يصعق .. لقد جالت صفرة رهيبة في وجههـا ، وذوت نضرته ، وترقرقت دمعة خرساء في مآقيها . وكأن كلامه كان سهماً مسدداً الى فؤادها . فحار لهـذا التغير المفاجيء ، وتجاهله وتابع : تحدثي يا آنسة وديعة .. وتجهش بالبكاء ، ويحس ان كلامه يمزقها . أيكون والدها قضى نحبه ، وذكراه انكأت جروحها الغافية ؟ انه مجرم بسؤاله الطفيلي .. ويحاول ان يعتذر : عفواً اذا ازعجتك . أمات ابوك ؟ فيتعالى نشيجها ..

ويثب بحركة سريعة ، وهو في اتون مستعر ، ويستدير على عقبيه ، بعـد ان ارتسمت على ثغره ابتسامة مرة هي افجع من الدموع التي تذريهـا وديعة المرتاعة . ويلتقي بخطيبته سامية ولا يراها .. وتستوقفه ، فيشعر انه بحاجة ان يخلو الى نفسه ، ويريد ان يتملص منها ويقول : دعيني يا سامية ، انا بحاجة للسكينة ، سكينة نفسي ، سكينة الوجود ..

وتفغر فاها دهشة : ما عراك يا مصباح ؟ ان سحنتك مقلوبة . وما تزال به حتى يحدثها بجلية الخبر .

فتقطب ما بين حاجبيها وتسأله : لماذا ألقيت سؤالك هذا ؟

— اصارحك يا سامية اني احبها واريدها زوجة لي .. وسأخطبها من ابيها .

وتكلم مرغماً فلم يعرف كيف تكلم وكيف انساق منه هذا التصريح، فلم يكن موجوداً في هذا الافق الذي ستملأه سامية .

ومزق السكون المرفرف صوت سامية : اسمع يا مصباح .. كل من يسأل وديعة عن والدها يقطع نياط قلبها .. مسكينـة ليس لها اب .

— اتعنين انه مات ؟! ان كل حي يسير على هذه الطريق . الموت خاتمة المطاف في هذه الحياة الدنيا .

— نحن لا نعلم شيئاً عن الحياة . اتريدنا ان نفقه سر الموت؟

— لست بحاجة الى هذه الثرثرة .

— مصباح .. اني ارغب من اعماقي ان تتزوج هذه البائسة .. لا يهمك امري فان مركزي الاجتماعي وثروتي وشخصيتي ،تهيء لي عريساً ممتازاً . ولكنها مسكينة .. اصغ الي .. والله اني اخشى ان تنقلب على رأيك ، وتصدف عن رغبتك حين تسمع ما ألقي عليك من اليم الكلم . وديعة لم تعرف اباً معيناً . وبعض الشقيات من الطالبات عندما يحلو لهن تعذيبها يعرضن بابيها ويغمزن من قناة امها . فاذا فعلن هذا بكت وبكت وصلت تطلب الى الله ان يرحمها ويبر امها . هذه الفتاة الطيبة تشاء الاقدار الساخرة ان تكون ابنة راقصة . لقد نشأت امها فقيرة ، ورغم جمالها الساحر لم يتقدم احد الى الزواج منها، وماتت امها التي ظلت تتعهدها وتنفق عليها من عملها في البيوت ، تطبخ وتغسل لتقدم القوت لابنتها حتى ماتت ، فاندفعت ابنتها في غمار الحياة وكان مصيرها المسرح ترقص عليه في الليل تعرض جسدها العاري للانظار النهمة . وانساقت في الرذيلة تتخبط بها ، حتى حبلت المسكينة وكانت الثمرة وديعة الرقيقة التي تمتاز بفضائل قل ان توجد في انسانة .. تربت وديعة بعيدة عن الجو الذي تتمرغ في حمأته امها . ففي طفولتها عهدت بها الى اسرة فاضلة ترضعها وتربيها وتدفع لها الاجر الباهظ . ولم تكن لتزورها الا لماماً حتى درجت الطفلة فكان مأواها المدرسة الداخلية تتلقى العلم والفضيلة . ونشأت حساسة ناعمة ذات اخلاق ممتازة ، فاذا جاء الصيف تبقى في المدرسة الداخلية تحت رعاية الاساتذة .. تقضي وقتها بالقراءة والصلاة .. مسكينة وديعة ! انها وجدت في مهد الوحل ، ولكن اللؤلؤة التي توجد في الوحل، ايمنعها ذلك من ان تكون لؤلؤة نقية ؟

ولجأت سامية الى الصمت لترى اثر كلامها في مصبـاح الذي كان يصغي بكليته وتعلوه سحابة كثيفة من الهم ويقول اخيراً: لقد زدت رغبة في انقاذها .. احبها وكفى ..

— ان كلامك رائع يا مصباح .. وخشيت ان تميل عن رأيك بعد معرفتك للنسب الاسود الذي يهيض جناح وديعة .

— هذا النسب اوهي من نسيج العنكبوت . سأتزوجها لنفسيتها . سأبني بوديعه وليس بنسبها . ان الزهرة اذا نبتت في القفر السبسب اجمل منها في الحديقة .

— هيا بنا لنذهب اليها ..

وطفر نحو السنديانة وكانت وديعة تحملق في الافق ذاهلة عما يحوطها من خوالب الطبيعة . وقالت سامية : وديعة سأحدثك بامر هام ، لقد اخبرت مصباح بكل شيء . حدثته عن امك الراقصة وعن ولادتك السوداء . لكنه لم يأبه لها وهو معجب بروحك العذبة وهدوئك الصافي وجمالك الموحي .. وهو يريد ان يتخذك حليلة .

وكانت مفاجأة .. فحدقت وديعة مذعورة وعقدت الدهشة لسانها ، فحبسته فلم يطلق اية كلمة .

واستطردت سامية : ان مصباح يليق بك فلا تفجعيه بصدودك .

وقال مصباح : وديعة اهواك وسأسعدك . اشكري سامية على تضحيتها البالغة .

واستطاعت وديعة ان تجاوب بعد لأي : ارفض هذا الزواج .

وجال الرعب في مصباح فصرخ : حرام ان تمزقي حبي الطاغي .. سأنتحر اذا اصررت على الرفض ..

— لا اريد ان انسج سعادتي على كفن الاخرين . ان سامية خطيبتك وهي من مقامك الاجتماعي .. اما انا فلست الا بائسة ..

— اسمعي يا وديعة .. ان خطوبتي لمصباح لم تكن الا تقليداً يحنطنا . كنت اشعر اني بعيدة عنه كما كان يشعر وكنا نعلم ان زواجنا لن يتم في اللحظة الاخيرة . لقد نشأنا معاً منذ الطفولة ونحن نحب بعضنا كأخوين . وقد تحدثنا كثيراً بهذه العاطفة الاخوية التي تمنع زواجنا .

— ان ما تقوله سامية صحيح يا وديعة .

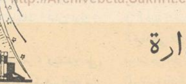
— اصر على رفض الزواج .

— لا تفجعي مصباح يا وديعة .. ستقبلين به .

— سأنتحر اذا لم توافقي يا وديعة . . وسأتزوج منك رغماً عنك .

وسكتت .. وكان سكوتها دليلا على اقرارها بالموافقة رصفقت سامية طويلا لما راح مصباح يشتف قبلة من ثغر وديعة خطيبته الجديدة .

اللاذقية — محمد الحاج حسين



من الادارة

١ — ابتداء من الجزء الرابع رفع ثمن الجزء الى ٥٠ غ . ل . عوضاً عن ٤٠

٢ — يبقى بدل الاشتراك على حاله . ولا يقبل الا عن سنة كاملة بدؤها شهر كانون الثاني غير ان الادارة لا تتعهد بارسال الجزء الاول عن السنة الحالية لنفاد نسخه .

٣ — الاشتراك في الخارج على نوعين :

(١) جنيه مصري للخارج عموماً . ويعطي هذا الاشتراك صاحبه الحق في الحصول مجاناً على منشورات الاديب التي تصدر خلال السنة (٢) ٧٥ قرشاً في فلسطين والولايات المتحدة — و٦٠ قرشاً لباقي الجهات — وهذا الاشتراك لا يعطي صاحبه الحق في منشورات الاديب

٤ — يدفع بدل الاشتراك مقدماً ولا ينظر الى اي طلب غير مصحوب بالبدل .

٥ — كل المقالات والابحاث التي ترسل الى « الاديب » لا ترد الى اصحابها سواء انشرت ام لم تنشر

٦ — تكون جميع المراسلات الى العنوان التالي : مجلة « الاديب » صندوق البريد رقم ٨٧٨ بيروت — لبنان

عربدات الشراع

ه

طفرت والجو وهج واغاريد وعطر
موجة سحرية في لجة الضوء تكر
والمنى مخمور آهات حواليها تذرّ
زورق طافت به الاحلام هنهاف اغرّ
يمخر الطيب ، وفي منهمر النور يمرّ

ارفقي في تيه احداقي ، فالاهواء خمر
كوكباً تعشقه الآفاق لا يطويه فجر
يتعرى ، فالدنى موج وصهباء وسكر
وتهاويل نعيم وغرابات وسحر

في دمي ، بل في دم الكون ، حنين مستمر
ضجت الاشواق فالدنيا خفوق مستمر
هي اصداء شباب ثائر ليس يقرّ
دغدغيها بشروق افقه الفتان ثغر
برعم الاغواء ام ترقصه افياء زهر
وهجة في مقلتي زهو ، وفي جنبي جمر

انا يا قلب شراع حائر لا يستقر
اترى تجذبه الضفة ، ام يطويه بحر ???

دمشق — احمد شكري سالم

أهداف الناحية الخلقية في التربية اللبنانية

بقلم منير النصولي
استاذ التربية وعلم النفس في دار المعلمين الرسمية ببيروت

●

اذا علمنا ان التربية العقلية ، ان هي الا واسطة تستهدف تمييز عناصر التربية الخلقية التي يجب أن نتخذها اساساً لمذهب سلوكي نتبعه في هذه الحياة ، تحققنا ما لهذه التربية الخلقية من مكانة سامية في منهاج رقي الامم . فهي مقياس الحضارة التي تزدهر بازدهارها ، وتنحط بانحطاطها . ذلك ما يدفعنا لدراسة اهدافنا الخلقية في هذا الوطن الحبيب ، عسانا نستعيد ما كنا عليه من مجد وحضارة .

ولكن قبل ان نعين هذه الاهداف يجدر بنا ان نحدد امكانية هذه التربية في النفوس .

فاذا ما استعرضت الفلاسفة ، مررت بالمتشائم الذي لا يرى في التهذيب عملا مجدياً لتغيير ما طبعت عليه النفس ، وقد يقطع عليك كل رجاء في ما تقوم المعاهد التربوية كشوبنهور واتباعه ، والمتفائل الذي يتطلع الى الافق الفسيح ، فيعقد كل آماله على تأثير هذه التربية الخلقية في الشعوب ، كديكارت ، ولوك ، وستوارت ميل ، وزعيم علم الاجتماع الحديث دوركيم واتباعه الذين يعتمدون على فعالية ما يمليه الرأي العام على الافراد ، فهم يعتقدون ان الفرد يستقي حتماً وعيه من ذلك الوعي الاجتماعي او بالاحرى ان الوعي الاجتماعي يفرض نفسه فرضاً على الوعي الفردي ، والمعتدل الذي يقف ما بين المتشائم والمتفائل في نظريته كأمثال ريبو وموسو وموللي .

يقول هذا الاخير في مقدمة كتابه « الجرم والجنون » ما يأتي :

« مهما عظم سلطان التربية فهو على كل حال قوة محدودة . وحدودها كامنة في طابع الفرد الغريزي . فلا يستطيع العمل الا ضمن دائرة تحدها الحاجة الاضطرارية . ولا سبيل الى جعل الورد يحمل تفاحاً ، ولا الصبير تيناً ولا يستطيع مخلوق ان يتجاوز حدود طبعه . ويستحيل غرس عقل او طبع له امل في البقاء طويل في تربة طبيعتها رديئة . . فتهيء الوراثة الفردية في كل نطفة قسمة الفرد الخاصة به . . . ضعوا طفلين منذ ولادتهما في ظروف واحدة وهذبوهما على مناهج واحدة فلا يخرجان بعد ذلك بعقل متشابه كما يخرجان بسحنة متشابهة ، اذ كل منهما يخضع لسنة النشوء فيكيف سلطان الوراثة كل منهما ، وهما من نتاجه المتباين » . ويقول موسو . « ان خرافة اللعنة الهائلة التي تنزل على رأس البريء قبل ولادته ، والبركة التي تظلل النشء المقبل وهو لا يزال في صلب المستقبل ليستا عاريتين من كل معنى صحيح : فالقدر يخصص كلا منا بنصيب محتوم من الاشياء الموروثة » — عن امكان التهذيب لابي زهير الاندلسي —

واخيراً فلما كنا نرى في نظرية النسبيين مطابقة علمية توفق ما بين عوامل الوراثة ، والبيئة والتهذيب ، وجب علينا ان نراعي جميع هذه المؤثرات في اتخاذنا اهدافاً خلقية تلائم مزاجنا وبيئتنا .

يتمتع لبنان بميزات طبيعية ندر ان تمتع بها بلد من بلاد الحوض المتوسط . فهو يزهو بحلته القشيبة ومناخه اللطيف ، ويفخر بتاريخ مدنيته التليدة : فتراثه حافل بالامجاد من الوجهة الفكرية والخلقية . ذلك مما يزود ساكنيه بحافز عظيم للعمل المثمر ، فهم يقومون على الاسفار البعيدة فيغالون في مغامراتهم سياسية كانت ام اجتماعية الى ان يصلوا الى تسلم حركات عديدة ولو كانت اجنبية . فأينما حلوا برزوا وذاع صيتهم . فاتصفوا بصفات شعب نام يقدم على المشاريع الصعبة ويفوز بها على اقرانه . حتى تنبه بعض الشعوب من حل اللبناني عليهم مساكناً فأخذوا يناهضونه خشية مزاحمتهم تلك المزاحمة التي تدل على فطنة خلقية .

كل هذا التراث ، جعل من لبنان بلداً يفاخر بميزاته ومواهب ساكنيه .

ولكن هذه الميزات وتلك المواهب ، ان لم يستفد منهـا في سبيل توجيه الشعب ، فقد تكون اداة غرور تؤدي بالمجتمع الى انحطاط خلقي ، وهذا الانحطاط الخلقي قد يبدو ظاهراً في اللامبالاة تجاه القيم الاجتماعية التي يعتمدها الاخرون .

فهذه الميزات وتلك المواهب من جهة اخرى قد تكون اداة صالحة – للمركز الذي يحتله لبنان من الوجهة الجغرافية – لنقل ما يناسبنا من الحضارة الغربية ، وبوسعه ان يمثل الدور الرئيسي في توصيع المدنية الشرقية ، اذا قام بعمل العقل الواعي في انتقاء ما يصلح للشرق .

وهنالك امر آخر قد يحسبه البعض حاجزاً يعترض سبيلنا ، وقد يعتمد عليه البعض الاخر في تحضير المجتمع الى تلك الحياة السامية من الناحية الخلقية الا وهو تعداد الاديان .

فنحن نتساءل متى كانت الاديان حجر عثرة في رفع المستوى الخلقي في الامم !

ان الاديان السماوية التي تعمل على الترفع عن المادية ، تعتمد على تلك المثالية الالهية ، فتغرس العقيدة وتقوي الايمان وتدفع لعمل الخير واجتناب الشر .

وفي هذا كله فانك لا ترى النصرانية والاسلامية واليهودية تتضارب في قيمتها الخلقيـة الاجتماعية ، كالتسامح والتساهل والعطف وكل ما ينادي ويطابق ما تفرضه تلك الاديان السماوية .

ولكنك اذا زحزحت هذه الاديان عن المحور الذي تدور حوله فقد تؤدي الى التعصب الاعمى ، تعصب ينتج عنه التفرقة والتناحر فالطغيان الى آخر ما هنالك من الصفات المنافية للاخلاق الطيبة .

على كل يمكننا ان نفصل الاخلاق عن الدين ، ونجعل منها مذهباً عاماً يشمل جميع افراد المجتمع في سلوكهم دون ان نعارض ما اتت به الاديان من واجبات فتتوحد النظرات الاجتماعية وتتم بتناسق يرتاح اليه الضمير .

فالمعاهد التربوية عندنا ، التي يترتب عليها واجبات عديدة نحو هذا المجتمع تنقسم الى عدة مدارس .

واما البيئة عندنا فهي سيئة الاثر في التربية لان الاسرة شديدة الضعف في الاشراف على ابنائها ، تحبهم وتعطف عليهم ويمنعها ذلك الحب وهذا العطف من ان تسيطر عليهم كما ينبغي .

فلبنان بعد ان يتوصل الى نتيجة الناحية العقلية في التربية يضع لنا معالم الحس الاجتماعي الخلقي حتى تتكاتف المعاهد من جهة والمجتمع من جهة اخرى على جعل هذا الحس عقيدة راسخة في النفوس يعمل على المحافظة عليها كل لبناني .

فهدفنا يكون في تنمية الميل الى النظـام والتضامن وقوة الحكم وما يشابهها وتربية الارادة ومضاء العزم ففي هذا كله يجب ان نعتمد على الاعمال لا على الاقوال . يقال : انه دخل شيخ داراً من دور التمثيل في آثينا ، ومر بين الاثينيين ، فسخروا منه ، ولم يفسح له احد ، فاستمر في سيره حتى اذا وصل الى جماعة الاسبارطيين قاموا اجلالا له ، وأجلسوه بينهم فقال : حقـاً ان الاغريق جميعاً يعرفون الفضيلة ، ولكن لا يعمل بها الا الاسبارطيون .

معرفة الامر شيء والعمل به شيء آخر ، فلا يكفي مطلقاً ان نعلم الطفل كلمة الاحترام ، بل يجدر بنا ان نعلمه كيف يكون ذلك بصورة عملية وان نلاحقه ايضاً ، ملاحقة جدية ، في تطبيق ما يتعلم ، حتى يصبح لديه ملكة يعمل بها .

يجب ان نوجه كل قوانا الى تنمية العواطف السامية في الطفل فندفعه الى محبة لبنان والتمسك بصفات اسلافه الطيبة كتفانيهم في سبيل الصدق والامانة والكرم والاخلاص والمحافظة على الاحترام والتواضع والخدمة الانسانية والمدافعة عن حوزة الشرف بجرأة واقدام .

قل لي : اي خير يرجى ممن امتلأ قلبه – ولو كان اعظم عالم – الحاداً ونفاقاً وكبراً وغروراً ، واستحال دم الحياء في وجهه الى صديد القحة ، فسرى قيح الرذالة الى جميع شرايينه ، فانقلب مظهراً لانواع الرذائل ومصدراً لضروب المعايب ؟

منير النصولي

◆

الظمآنة

هي تطلب الماء ، ابداً ، لترتوي
ولكن هيهات ان ترتوي . .
لقد شربت من يدي ، كما شربت من فمي
فقدمت لها عصارة نفسي
وسكبتها كالفجر في فمها
فما كادت تشرب
حتى تمتمت شفتاها
كأنما تطلب الارتواء
والقطرة الاخيرة ما زالت تكرُ على لسانها
ولقد شربت كثيراً من غيري
فما ارتوت من احد
وسوف تشرب الى ان تتلاشى
وهي ابداً ظمآنة لا ترتوي !
وكما انشبت اظافرها في صدري
تطلب الماء .
ثم اخرجتها تحمل مقاطع من كبدي
فكذلك سوف تنشبها في صدر غيري
الى ان تهبط قواها
وترتمي على ركبتيها من الضعف والوهن
محاولة الغدائر ، كسيرة النفس
في طلب الارتواء
ويمرّ بها الناس فيأخذهم الاشفاق عليها
ويتهامسون
امرأة تائبة تصلي الى الله
ويمرّ بها الذين عرفوها فيقولون :
هي اشباح الضحايا تتراقص امامها في الليل
فترعبها
فهل تنفعها الصلاة ؟
اما هي ، فيجفّ لسانها
ولا يفيدها التوسل شيئاً
فتعض على شفتيها من الحنق
ويسيل دمها اصفر
فتشرب منه
ولكنها لن ترتوي
وتموت مسمومة بذلك الدم الملوث
وهي تصرخ : الماء ، الماء . . .
فتردد الاودية والكهوف صدى صراخم
حتى يصل الصدى الى الهاوية السحيقة
فتحضنه وتخمده في اعماقها المظلمة . . .
وعندما يقترب الفجر من الظهور
تمتد ايدي الاشباح الى ذلك الجسد الاسود
وبينما يرسل الفجر من ثغره قبل الوداع
على بقايا العتمة الحائرة
يفتح نسيم الشروق البليل
الابواب والنوافذ
وهو يسبّح بانشودة الحياة
حاملا من عليا الروابي وقمم الجبال
عبيرة الورد النقية
وحفنة من التراب المقدس
لتطهير ذلك الجسد .

البير اديب

احمد راسم

في الحديقة القديمة

بقلم الياس ابو شبكة

لسبعة أشهر خلت اذ كانت مجلة «الاديب» في مهدها جاءني منشئها بقطعة من الشعر الفرنسي منشورة في مجلة «France-Orient» وقال لي: «الك ان تنقل هذه القصيدة الى اللسان العربي لننشرها في الاديب .» فحملقت في القصيدة وقلت على الفور: «لا ! ..» فقال مستغربا: «ولم ؟» فقلت: «لاني لم افهمها . كيف تريد ان انقل الى العربية فرنسية لا أفهمها ؟ فانا يا صاحبي من تلك البقية المتأخرة التي لم توهب نعمة الذوق الحديث ولم يفتح لها في النورانية التي فتحت «للمتقدمين» من شعراء اليوم فادرك ما لا يُدرك وادرى ما لا يُدرى. فاعفني ، يرحمك الله ، من هذا الشعر وبورك هم فيه» فقال ضاحكاً: «ما هذا التمرمر ؟ وما الذي أحوجك اليه ؟» فقلت: «ما الذي احوجني اليه ؟ قبل مجيئك بهنيهة قرأت في هذه المجلة التي ما زالت مصروعة على الارض قصيدة يقول ناظمها العبقري انها من فن السوريالزم . ولما لم أفهم منها شيئاً خبطت بها الارض ولا تزال اعصابي متشنجة الى الان . اسمع: «منافذ القدر المحترقة تطل على سقوط الثمار الرنانة . وفترات الحلم مغمورة في شبه ظل يجري عليه اشعة من الزمرد . وجميع المرايات القمرية تعيش من الصورة المتعددة للفضاء النشوان .. من صدى الخطوط المائلة الى الزرقة .. من امتداد النظرات التي لم تشبع بعد . دم العدم الثائر للاشكال المعجونة بالكوابيس يحفز الافاق للتمرد . حتى النغمات المفاجئة تنبح في المقلات المحتضرة ..» فهل فهمت شيئاً ؟ ووالله اذا فهمت ما يريد هذا الشاعر او اذا علمت من اي فوسفور مركب هذا الكلام أتعهد بان ارفع لك تمثالا على باب المدينة وان اعيش برجل واحدة ويد واحدة كشق ....» فقال «طيب ... ولكني لم أرك قد قرأت شيئاً من قصيدة احمد راسم ليحق لك ان تتهمه بهذيان «المتقدمين» من الشعراء الذين يرون ما لا يرى ويدركون ما لا يدرك ..» فقلت «قرأت هذا :

Et tu connaitras le visage mystérieux des profonds volumes qui conduisent à retrouver avec l'architecture du monde , l'architecture de l'esprit ...

فاكتفيت .» فقال: «لسؤ الحظ اني جئتك باحمد راسم وانت بعد متأثر بالاشكال المعجونة بالكوابيس .. فهل لك ان تقرأ قصيدة راسم وانت في بحبوحة من صفاء البال ؟»

وفي المساء تناولت قصيدة Le Fou de l'Attaka واذا هي مقدمة بفذلكة عن حياة الشاعر جاء فيها ان الاستاذ احمد راسم يشغل في الوقت الحاضر منصب محافظ السويس . وفيما عيناي تطوفان على شذرات من القصيدة كنت احدث نفسي بما يلي: اي نسب بل اية قربى يمكن ان تقوم بين محافظ مدينة وشاعر ؟ واية صلة ممكنة بين روح تصرف شؤون شعب له مشاغله اليومية وله نزعاته واغراضه وروح تسير دفة الخيال الى ما وراء المادة وتغوص في غمر من الطيوب والالوان والموسيقى ؟

وسرعان ما زال عجبي عندما تذكرت ان لامرتين الذي انشد قصائد هي روائع في التراخي المغري وآيات في الوجد هو نفسه الذي حكم فرنسا وانقذها من الفوضى ، فالعبقرية التي نظمت في الماضي قصيدة كالبحيرة وحكمت بلداً كباريس لا تعيى اليوم عن ان تنظم قصيدة كمجنون العتقة وتحكم بلداً كالسويس . ولو أنصف الناس لولوا عليهم الشعراء ، فالشعراء هم مستودع الحب ، والويل لشعب لا يرى الحب في حكامه . والشعراء هم قلوب الناس فاذا ضلت العقول فالقلوب لا تضل . ايها الناس ، لقد حكمتم فيكم جميع اصناف الناس فلم تفلحوا وما نسيتم الا الشعراء ، فحكموهم فيكم لعلكم تفلحون ..

واني لعلى اكبر من اليقين ان سكان مدينة السويس سعيدون بحاكمهم الشاعر ، مغتبطون به فخورون ، ومطمئنون الى ان في العقل الذي يتدبر شؤونهم قلباً معجوناً بالرحمة لابالكوابيس .. معطراً ببلسم المحبة المدركة والحنان المحيي .

اصدر الاستاذ احمد راسم لاشهر خلت مجموعة من شعره بعنوان « في الحديقة القديمة » (١) . ولا اخال احداً ينتظر مني ان احدثه عن مجموع ما في هذه الحديقة المقفلة . قد رُوي ان احد المصورين رأى يوماً مصوراً ناشئاً يرسم صورة ريفية وبعد قليل تحوّل اليه المصور الناشيء . وقال له : « لن افلح » فكلما مضيت في العمل بعدت عن الطبيعة . » فقال له المصور : « أتسمح لي بأن اجلس مكانك لارى ما عملت ؟ » وما ان جلس حتى اتضح له ان الغاوي المسكين يحاول تصوير جميع ما تقع عليه عيناه فقال له : لقد عرفت ما بك فانت تحاول وضع البرميل في الزجاجة ، فلن تفلح . »

وانا لن احاول وصف جميع ما وقعت عليه عيناي ووعته اذني من صور هذا الشعر واصواته ، من اصواته المكبرة وصوره المحولة عن حقيقتها على طريقة الفوفيزم . وقد قيل ان كل رؤيا تتراءى من العالم المنظور محولة عن حقيقتها لان لنا افكارنا ومزاجنا ولنا على الخصوص جسدنا وهو أشبه مـا يكون بصورة متبلورة عن ماضينا السحيق ، ويرينا العالم خلال هذا الماضي المتراكم . والشاعر العظيم كالمصور العظيم يحول مـا يرى عن حقيقته ، على انه يلزم الاستقامة في فنه لانه لا يصور الا كما يرى ويحس . اما الرداءة في الفن فتبدأ حين يعمد الشاعر عن سابق قصد وتصميم الى تحويل الشيء عن حقيقته لظنه ان هذا التحويل يدهش ويبهر ويعجب .. ويقيني ان احمد راسم ما تعمد تحريل الصورة عن حقيقتها عن سابق قصد وتصميم حين قال : « كانت ذراعاهـا المحبرتان باسورة من الزجاج تغنيان كثريا من البلور تلاطفها الريح ... وقـد احتفظ جسدها بجلال تلك الاشرعة التي يركبها القراصنة .. »

قرأت شعر احمد راسم في جو حري به ، فقد اردت في بادىء الامر ان اهيء نفسي له فجلست على شرفة بيتي المطلة على الخليج والاكمات السبع المتسلسلة حوله اطـاراً لم تبدع يد الطبيعة اجمل وأروع منه ، رمادياً فاتحاً مخضباً بمسحة بنفسجية خفيفة ، ومالبثت نفسي ان سالت على هذه الجواذب الفاتنة وامتزجت بها ، فشملني خدر عميق شعرت معه بأن جسراً يمتـد بين الارض والسماء ، بين الانسان والله ، وسرعان ما خيل الي ان الاحقاد البشرية تذوب وتمحي وان الحياة تتدفق ينابيع من الحب ، ورأيت الحب في كل مكان ، رأيته كريماً كالله يعطي ولا يحتكر ، يحرر ولا يستعبد. رأيته في التربة التي تعطي الغراس وفي الغراس التي تعطي الثمر ، في الينبوع الذي يعطي الماء وفي الماء الذي يعطي الحياة ، فقلت في نفسي : ما دام الانسان ينشأ في هذا الجو الكريم ينشىء من الطبيعة نسيمها مع الحب ويشرب مع الحب زلالهـا ، ومع الحب يأكل ثمارها ، فمن أين ولدت فيه عاطفة العجرفة والحقد ؟

وأرسلت عيني وروحي في شعر راسم ، وكلمـا انعمت فيه الفكر والروح وضح وصفا ، واذا بي في حديقة ما تنكرت علي في مغالقها اسرار الشرق . رأيت في هذه الحديقة مـا رأيت على الخليج والاكمات والبقاع وما يليها من مفاتن الطبيعة المطمئنة حول بيتي كأني امام قصيدتين تكمل احداهما الاخرى . وهل خلقت الطبيعة الا لتلهم الشاعر ، والشاعر الا ليجمل الطبيعة ؟ ورأيت .. رأيت في هذه الحديقة مجانين الشرق او حكماء الشعراء يتفيأون ظلال الاساطير ويرسلون الحكمة مطية شجية ، في غيبوبة من نثار الورد والفل ، وفي غمرة مسكرة من الايقاع . رأيت فتنة الشرق في عذارى نوبيا ودلاله الكريم ، في بحيراته وخلجانه ، وسمعت ... سمعت الرياح تولول على الهضاب كرعشة المشتهيات ابان صخبهـا . ورأيت ... رأيت عرائس الشرق في لذائذهن المخدرة تنضح من اجسادهن اعراف ومن مراشفهن خمور .. خمور الحب واعرافه واعراف الحقد وخموره ... رأيت الشرق وسمعته في طموحه وزهوه ، وحلمه ويقظته . في كآبته ومرحه وكبريائه ودعته . في انواره وظلاله ومغالطته ومغالقه . في خشونته ورقته ، وفي شخوصه واشبـاحه . ورأيت الشرق في روحانيته المعطرة وسمعت هذه الروحانية تقول : لا نجاة للعالم ما لم يعد طفلاً ويرجع القهقرى الى مراضع الشرق فيرطب شفتيه بحليب الحب المحيي ويكحل عينيه برشاش الجمال الابدي .

الياس ابو شبكة

---

(1) Dans le Vieux Jardin, Ahmad RASSIM, Editions R. Schindler - le Caire.

روح الثورة الفرنسية

في مساء يوم من اولى ايام كانون الاول عام ١٧٩٣ خرج دانتون وسوبربيل Souperbielle — المحكّم لدى المحكمة الثورية — وكميل ديمولان من قصر العدل . وكان النهار دامياً قطعت في صبيحته خمسةعشر عنقاً في ساحة الثورة ، وحكم

ان وصلوا الى جسر « نوف » حتى تحول دانتون الى سوبربيل وقال له : « اذا استمر الحال على هذا المنوال فلن يبقى ثمة طمأنينة لاحد . فالدم الذي يهرقه القادة في ساحات القتال لا يمنعهم من اهراق ما بقي منه على المقصلة . انظر ، يا سوبربيل ! كأن النهر



نشيد المرسلياز   لوحة للفنان الفرنسي غوستاف دوريه

في اثنائه بالموت على سبعة وعشرين آخرين .

خرج الثلاثة من قصر العدل مطرقي الرؤوس يضغط قلوبهم ذلك المشهد الاليم الذي شهدوه . وكان الليل الذي يثير كوامن النفس ويهوّن عليها البوح والشكوى حالك السواد بارداً . وما

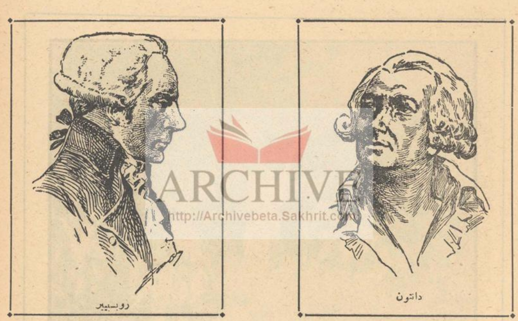
يجري دماً ! » فقال سوبربيل : « والسماء حمراء كأن وراء غيومها امطاراً من الدم ! بودي ان احجب هذا الدم . . ولكن ماذا استطيع ولست سوى مواطن خامل . آه ! لو كنت دانتون ! » فقال دانتون : « دانتون ينام ، فاصمت ! وسيستيقظ في وقته .

انا رجل ثورة يا صاح ، ولست رجل مجزرة . » ثم تحول الى كميل ديمولان واستطرد قائلا : « اما انت يا كميل ، ففيم تلزم الصمت ؟ » فأجابه ديمولان : « لقد تعبت من الصمت وتحدثني نفسي بان اشحذ قلمي كسابق عهده ، فمداده ابقى من دمهم ، فهو للخلود! » فصاح دانتون : « عشت يا كميل ! فباشر منذ غد . فمن واجبك ان تحجب دم الثورة كما اطلقتها . وكن على اكبر من اليقين ان هذه اليد ستدعمك . »

وافترق الاصدقاء الثلاثة على باب دانتون .

وفي صباح اليوم التالي كتب كميل ديمولان النسخة الاولى من

بتعصب جديد ؟ ومن يسمح لهم بان يتلاعبوا بكرامة الشعب ويعلقوا جلاجل الجنون بصولجان الفلسفة ؟ لقد خيل اليهم ان الكونفانسيون — La Convention — نفت العبادة الكاثوليكية ، وهي لم تفعل ذلك ، فقد اعلنت حرية العبادات وستقمع كل حركة ترمي الى اقلاق الامن ، وليست الكونفانسيون سوى منظمة سياسية وشعبية معهود اليها ليس بحمل الناس على احترام الحقوق فحسب بل على احترام طابع الشعب الفرنسي ايضاً . فهي لم تعلن بدون جدوى حقوق الانسان تجاه الكائن بذاته ففكرة وجود كائن اعظم يسهر على البراءة المظلومة ويعاقب الجريمة انما هي فكرة


دانتون — روبسبيير

جريدته « له فيو كوردليه Le Vieux Cordelier » وبعد ان قرأها على دانتون حملها الى روبسبيير . وكان روبسبيير ما يزال متردداً امام تدابير « الارهاب » فلم يؤيد كميل ديمولان ولم يلمه بل لزم في كلامه جانب الحرية التي كان يريد الاحتفاظ بها في اعماله .

ولئن كان روبسبيير ما برح متردداً في مهاجمة « الارهاب » خشية ان يجرد جمعية السلام العام Le Comité du salut public من سلاحها فهو لم يتردد لحظة في مكافحة الذين كانوا يهاجمون وجه الثورة ويحاولون احلال الالحاد محل العبادة الالهية . قال : « بأي حق يزعجون حرية العبادات باسم الحرية نفسها ويهاجمون التعصب

شعبية . »

وهكذا كان روبسبيير يخلق للثورة ضميراً وقاضياً . وفي ذلك تلاقى ودانتون على صعيد واحد .

وفيما اعداء الثورة يعملون على قتلها كان ابطالها الميامين يبثون مبادئها مستمدة من تعاليم فولتير وروسو وديدرو ومونتسكيو . كان كميل ديمولان يرتفع احياناً الى فلسفة فينلون ليخلع على الثورة لون ديانة سياسية فيقول : « من خطل الرأي الاعتقاد بان الحرية كالطفولة بحاجة الى ان تمر بالصراخ والدموع لتصل الى الادراك والنضج .

فالشعب حر اذا اراد ان يكون حراً . وليس للحرية شيخوخة ولا حداثة ، بل لها عمر واحد هو القوة والصلابة . لا ، ليست الحرية التي نعبدها الهاً مجهولا ، بل هي إلهة منظورة ملموسة توزع الخيرات على من هب ودب من مستحقيها . وهذه الخيرات هي اعلان الحقوق وهي عذوبة المبادىء الجمهورية ، والاخاء ، والمساواة المقدسة ، والعدل . »

وكان سان جوست يبث في خطبه مبادىء روبسبيير فيقول :

«ان النظام الاجتماعي كائن في طبيعة الاشياء نفسها ، والانسان يولد للسلام وللحقيقة ولا يفسده الا القوانين الرديئة . فاذا سنت له قوانين تلائم طبيعة قلبه اعطي السعادة التي يستحقها والحقوق التي له . على ان طرق الحكم واساليبه لم تخلق الا وحوشاً فضلت الشعوب سبيلها . فمن واجبنا ان نهدي هذه الشعوب الى الصراط المستقيم . »

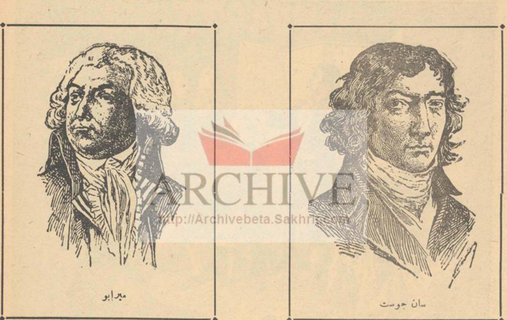
في ذلك الحين كان روبسبيير يواصل كل مساء غرس مبادىء الفلسفة الاجتماعية في نفوس اليعقوبيين Les Jacobins وفي الصباح يطلب ادخال هذه المبادىء في الدستور . وكثيراً ما كانت المناقشات العنيفة تحمل الخطباء على التهالك بعضهم على بعض ، ولكن حالما تهدأ الزوبعة يستحيل غضب رجال المنابر الى محبة كبرى للحقيقة الاجتماعية ، للشعب وللجنس البشري على اطلاقه . وكان روح الشعب يوحي مبادىء الكونفانسيون ويأخذ بيدها ، فألغي التسول بانشاء منظمات للعمل وملاجىء للعجز ، واجبر الاغنياء على المساهمة في اسعاف المجتمع كل بمقدار طاقته ، وتبنت الجمهورية جميع الاطفال اللقطاء ، ووضعت لجاماً في فم الجشع التجاري ، وقررت التعليم الاجباري لتعميم شيوعية الفكر لان الجنس البشري هو بمثابة اب مفروض عليه ان يخلف لذراري الوطن ميراث جميع الافكار والمعتقدات والآراء ، ولان التربية هي كالهواء ينشقها جميع المواطنين على السواء . واوجبت ان يكون العمل جزءاً جوهرياً من التربية ، وحراثة الارض اولى عناصر هذا العمل . ذلك ان روبسبيير كان



الشاعر روجيه ده ليل يهتف لاول مرة بنشيد المرسلياز

كجميع الشارعين في العهد القديم يرى في اشغال الحقل اشرف حرف الانسان لانها تقوت العامل بطريقة مباشرة ولا تحرك عاطفة الجشع في كسب كسواها من الاشغال الاخرى . وصفوة القول ان سنة روبسبير هذه كانت مستوحاة من دساتير «فينلون Fénelon» في جمهوريته سالنطه ومن خطط جان جاك روسو في كتابه «اميل» Emile . وهكذا بدت الاثرة الفردية كأنها تنخسف امام مبدأ الاخلاص للوطن ، ففرضت الضرائب على اساس الثروة ، واسعف العجز والكسحاء ، وتبنت الجمهورية الاولاد الذين لا اباء لهم ، وانتشلت الامومة غير المشروعة من هاوية العار الذي يقتل الولد عاطفة الجمال في روح الولد بحمله على حفظ اجمل القطع الفلسفية والشعرية والادبية التي خلفها الروح البشري ميراثاً للاجيال .

ولكي يؤمن روبسبير نفقات هذه المؤسسات ودفع اجور المعلمين والمعلمات طلب فرض ضريبة سميت ضريبة الاولاد . وطلب ايضاً فرض ضريبة للفقراء يخصص ريعها للشيوخ العجز والمرضى . وبديهي ان روبسبير كان يستهدف الاشتراكية في الخيرات والتساوي في المراتب ، مدفوعاً بروح الاشتراكية البدئية ، المثل الاعلى للمسيحيين الأول وقد اصبح المثل الاعلى للفلاسفة . وشاءت الثورة ، فخورة بالعهد الجديد الذي افتتحته للعالم ،

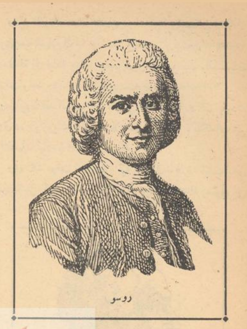


سان جوست

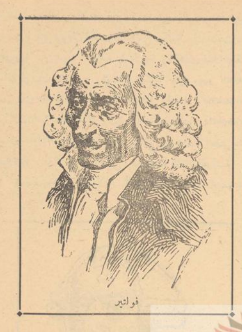
ميرابو

بهتكه حرمة الام ، واعلنت حرية الضمائر ، والغي الرق والمتاجرة بالعبيد ، واتخذت جملة تدابير شعبية تقيم الرأفة السياسية بمثابة معاهدة تحالف بين الغني والفقير ، وبدت محبة الشعب كأنها تنتشر في جميع نواحي الادارة ، وشعرت شعوب اوربا المستنيرة بان الثورة الفرنسية لم تنطلق لتختلس السلطة بل لتعطيها للشعب مقرونة بالاداب والمساواة والعدل والازدهار .

اما المعارف التي شعر الوطن بانه مدين بها للولد فكانت تنحصر في تعلم القراءة والكتابة والحساب ومبادىء الاداب الكونية وقوانين البلاد ، وفي تجميل الذاكرة بسير تاريخ الشعوب ، وفي انماء ان تكون الجمهورية الفرنسية عهداً في تاريخ الجنس البشري فاصدرت « اليومية الجمهورية » ليذكر الناس الى الابد انهم لم يرتفعوا الى مرتبة البشر الا منذ اليوم الذي اعلنوا فيه انهم احرار . ولكي تعزز الثورة الزراعة ، اول الفنون وآخرها ، سمت الاشهر باسماء الفصول فاعطت اشهر الخريف اسماء فانديمير الذي يتم فيه عصر العنب ، وبرومير الذي يجهم السماء ، وفريمير الذي يغطي الجبال بالصقيع . واعطت اشهر الشتاء اسماء نيفوز الذي يكسو الارض بحلة بيضاء من الثلج ، وبلوفيوز الذي يرويها بالامطار ، وفانتوز الذي يطلق الرياح . واعطت أشهر الربيع اسماء جرمينال الذي ينبت



روسو



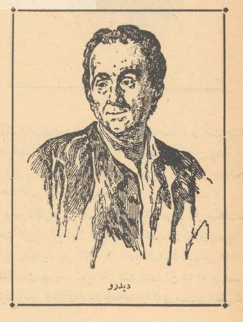
فولتير

الزرع، وفلوريال الذي يزهر النبات، وبريريال الذي يعشب المروج. وأعطت اشهر الصيف اسماء مسيدور الذي يتم فيه الحصاد، وترميدور الذي يدفيء الاتلام، وفروكتيدور الذي ينضج الثمار.

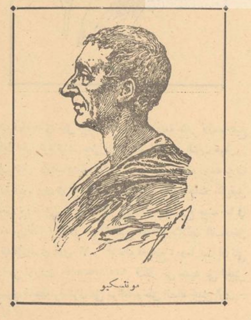
وقد اعد رجال الكونفانسيون خطط هذه القوانين على اسس الفلسفة والعلم والمساواة. وما كان من نابوليون الا ان تبناها، وما كانت الا ادوات الحرية وروائعها!

* * *

وكما انحبت روح الثورة تلك الطائفة الجبارة من الشارعين



ديدرو



مونتسكيو

والخطباء كميرابو ودانتون وفرنيو وروبسبيير وهيبر ومارا وسان جوست وكميل ديمولان أنجبت طائفة من رجال السيف أدّبت اعداء الجمهورية من الدول المتحالفة على الثورة وتكللت اخيراً بعبقري زمانه نابوليون بونابرت . وفي عداد اولئك الجنود مورو Moreau وجوردان Jourdan ومارسو Marceau وفاندام Vandamme ومكدونالد Macdonald وكليبر Kléber وبرنادوت Bernadotte ودوزه Dezaix وهوش Hoche ونكتفي في هـذا الفصل بنبذة قصيرة عن الجنرال هوش ، انقى وجه انجبته الثورة الفرنسية .

في صيف ١٧٩٤ أسند لازار كارنو Lazare Carnot ، عضو جمعية

وهذه المأثرة المدهشة حملت بودو Baudot وليبـاس Lebas ، عضوي جمعية السلام العام، على اسناد قيادة جيش بيشغرو Pichegru اليه مضافة الى قيادة جيشه فهاجم هوش البروسيانيين والنمسويين في وقت واحد ودخل ظافراً الى ويسمبرغ Weissembourg . اما البروسيانيون فقد انسحبوا الى مايانس Mayence وكان يقودهم الدوق ده برونزويك فالقى السلاح مغموراً بالعار لانكساره على يد قائد في السادسة والعشرين من عمره .

وفي ذلك الوقت الذي طهّر فيه قائد في سُحرة الشباب ارض الجمهورية من الاعــداء كان الجنرال دياس Dumas يستولي على



فرنيو

هيبرت

السلام العام الذي خلق جيوش الجمهورية الاربعة عشر ورسم جميع الخطط الحربية ، قيادة جيش الموزيل الى القـائد الشاب هوش . وكان هوش في السادسة والعشرين من عمره تضرم روحه نيران الثورة ، ولا يرى في المجد الا جمال الحرية . فقبل القيادة كما يقبل الواجب ، وما هي الا بضعة ايام حتى اضرم في روح جيشه ما في روحه من النار ، ووثب الى قمة الفوج Vosges بثلاثين الف رجل فحالفه القتال في بادئ الامر ثم خانه فتراجع ، وما لبث ان تلقى مدداً من الاردين Les Ardennes فكر من جديد على الجيش النمسوي فسحقه واستولى على مواقعه وحقق اتصاله بجيش الرين .

مشارف الالب ويهدد البيمونتيين ، حلفاء النمسا . وكانت جمعية السلام العام تفكر في غزو ايطاليا ، ولم يكن بونابرت يومئذ الا قائد فيلق ، على ان الخطط التي كان يبعث بها الى كارنو وباراس Barras كانت تنمّ على عبقريته .

وصفوة القول ان الجمهورية كانت تنتصر في كل مكان ، فراحت الفنون والعبقريات تشيد بهذه الانتصارات الاولى للحرية . وكما ان روجه ده ليل Rouget de Lisle انشد مخاطر ١٧٩٣ هكذا ماري جوزيف شينيه فقد انشد انتصارات ١٧٩٤ في قطعة « نشيد الرحيل » Le chant du départ الذي يستنشق الظفر كما

يستنشق نشيد المرسلياز الغضب .

نشيد المرسيل

La victoire en chantant nous ouvre la barrière,
La liberté guide nos pas ;
Et du nord au midi la trompette guerrière
A sonné l'heure des combats·
Tremblez, ennemis de la France,
Rois ivres de sang et d'orgueil,
Le peuple souverain s'avance ;
Tyrans, descendez au cercueil ;
La République nous appelle ,



مارات

Sachons vaincre, sachons périr ;
Un Français doit vivre pour elle ;
Pour elle un Français doit mourir !

ومثلت النساء دوراً خطيراً في الثورة الفرنسية . وقد قال ميرابو : « اذا لم تتدخل النساء في شؤوننا فلن يكتب لنا النصر » ولا شك في ان ميرابو لم يكن يجهل ان غضب النساء اذا احتدم يتجاوز في نيرانه جرأة الرجال ، ولم يكن يجهل ايضاً ان الحراب تلين على صدور النساء وان الايدي العزلاء اقدر على انتزاع اسلحة الجنود من الايدي المسلحة .

وفي عداد النساء الثائرات المرأة الشابة الحسناء البليغة روز لاكومب Rose Lacombe التي كانت ترأس « الجمعية الثورية النسائية » آخر « كلوب » ثوري سمحت به الكونفاسيون . كانت هذه المرأة في طليعة الباسلات اللواتي كنسن الظالمين الطغاة لا بالمكنسة بل بالخناجر والمناديل الحمراء . فنساء باريس كنّ على رأس الجماهير الثائرة التي اغتصبت قصر الملك فامتشقن الخنجر فوق سرير الملكة المسكينة وحملن رؤوس الحراس على رؤوس الحراب . اجل ، على اكتاف النساء الفرنسيات امثال روز لاكومب بنيت الجمهورية وقامت الديمقراطية ، ومن صراخ هؤلاء السبايا

دومولان

تصاعدت تلك الانشودة الخالدة ، الانشودة الانسانية التي غيرت وجه العالم فساوت بين الرفيع والوضيع ، والغني والفقير ، وافسحت السبيل الى سلوك الطريق المؤدي الى فردوس الحرية العظيم .

لقد ساهمت النساء الثوريات في بناء هيكل الحرية والمساواة والاخاء ونفخن في بوق « حقوق الانسان » وهدمن الباستيل كما هدمه الرجال .

على ان مبادىء الثورة كانت بحاجة الى رجل ينشرها في مشارق الارض ومغاربها . فالانتصارات الكبرى ، والفن العسكري ،

هوش

والفتوحات الغراء ، ليست بالفضائل الوحيدة التي يترمهـا التاريخ فيرقمها في مطاويه ، وليست الفضائل الوحيدة التي تقف عليها نواظر الشعوب في حياة عظماء الرجال الذين يدمرون الممالك او يشيدونها بقوة السيف . فالقيصر الكبير وان قهر الجرمانيين وغرس النسور الرومانية من قمة القوقاز الى جبال كليدونيا ، واجتاز غاليا الى ايطاليا وروما الى مقدونيا ، وصحاري الفرسل الى افريقيـا ، واطلال قرطجنة الى شواطىء النيل ، وعبر البوسفور والرين وجبال طارق والالب والبيرينه الا انه سيّر اسم روما ولغتها وعاداتها تحت حماية مجده الشخصي ، وحمل معه عصر اغسطس وهو يتنزى الى مطارح الحياة والنور ، وبنى اعظم وحدة سياسية عرفتها الارض .

ولكن الدهر لم يقيض لاحد من بين جميع الفاتحين ان يتناول من اسباب الحظ ما تناوله نابليون الكبير ، فان كان الاسكندر قد فتح في الحرب فتحاً امكنه من عصر بركليس فحمله الى مذاهب الجوزاء كما حمل القيصر عصر اغسطس ، وان كان هذان الفاتحان قد استمدا عبقرية هوميروس وسفوكاس وافلاطون وارسطو وفرجيل وهوراس فان نابوليون لقد حمل معه ثلاثة عصور فسح لها الله في الفن والعلم والفلسفة ، وما كان عصره اقل انطلاقاً في ميدان العبقريـة الفكرية من عصر من تقدمه من الفاتحين ، فقد اجتاز اوروبا مع مونتين وديكارت ، مع كورنيل وراسين ، مع فولتير وروسو ، وما كان اركان حربه الا جامعة متنقلة طوافة يرف عليها روح القرن الثامن عشر ، بروح الثورة ، وتجوب جيوب الامم المتأخرة لتستل منها ذاتيتها الرثة وتنزلهـا على طبيعتها فتتأثر بتقاليـد امة اعترف لها العالم بالفضل وبايعها السلطان عليه . لقد خلص بونابرت الى غايته في كل طور نحـاه ، فانه وان لاطف ذكريات الاريستوقراطيـة في فرنسا وتملق لاوهام الحكم المطلق اذ طـلاه بانظمة زائلة تهدمت تحت اثقـال الزمن الا انه بقي ذلك الديمقراطي العظيم ممثل الثورة الكبرى وناشر تعاليمها .

ا . ا . ش .



الجماهير الثائرة تستولي على حصن الباستيل

مجمل الاحداث السياسية والحربية في شهر

اتسم شهر تموز المنصرم بجملة احداث اهمها تطور الموقف العسكري في مصر لصالح الحلفاء. وفي جبهة فورونيج بروسيا لصالح الروس.

في الصحراء ففي اوائل شهر تموز بدأ الجيش الالماني ينسحب في قطاع العلمين واستولى جيش الجنرال اوكنلك على عدة مرتفعات ذات اهمية ستراتيجية . وفي السابع عشر منه شنت قوات روميل هجوماً كبيراً في القطاع الاوسط ، وبعد قتال عنيف انسحبت قليلا الى الغرب، وكانت قوات الحلفاء المؤلفة من الهنود والنيوزيلانديين قد استولت على قمة الرويسات جنوبي غربي العلمين . وهذه القمة تشرف على القطاعين الاوسط والشمالي من المنطقة . وهكذا انتهى اول هجوم كبير للدبابات الالمانية في العلمين .

وفي الاثنين والعشرين من تموز استؤنفت العمليات الحربية في الصحراء بعد هدنة قصيرة . فقد شن الاستراليون والافريقيون الجنوبيون هجوماً أسفر عن استيلائهم على مشرفين لهما بعض الاهمية . وشن البريطانيون في الوقت نفسه هجوماً آخر في القطاع الاوسط غربي قمة الرويسات . وهاجموا هجوماً ثالثاً في القطاع الجنوبي بجوار القطارة قاموا خلاله ببعض التقدم . وهذا الهجوم المثلث أسفر عن احتلال القوات البريطانية لمنطقة تل العيصي بكاملها . ويساهم الاسطول والطيران البريطانيان مساهمة كبرى في العمليات الجارية في الصحراء ، وقد قطع الطيران البريطاني الدليل على تفوقه على الطيران الالماني في هذه الجبهة . وصفوة القول ان الجنرال اوكنلك موطن العزم على الخروج ظافراً من معركة الصحراء ، وهو الان يحصن المواقع التي اكتسبها تأهباً للعمليات المقبلة .

في روسيا اما في الجبهات الروسية فبعد استيلاء الالمان على سياستوبول التي دافع عنها الروس دفاعاً منقطع النظير وكبدوا القوات الالمانية خسائر لا يحصيها عقل واصلوا تقدمهم نحو الشرق دافعين لكل شبر من الارض ثمناً غالياً جداً . وبديهي ان هدف الالمان هو الاستيلاء على روستوف . ويظهر ان القيادة الالمانية ما تزال تملك مقادير كبيرة من القوات الاحتياطية بالرغم من الخسائر الفادحة التي منيت بها . وقد تمكن الالمان بفضل دباباتهم من الوصول الى ضواحي روستوف ، ولا شك في ان الروس سيمثلون في هذه المدينة الدور الذي مثلوه في سياستوبول ، اي انهم سيدافعون عن كل شبر وكل بيت الى ان ينهكوا العدو .

وفي جبهة فورونيج يقوم الالمان بهجمات معاكسة من غير ان يتمكنوا من استرجاع المواقع التي اكتسبها الروس . وللروس في هذه الجبهة ما يمكنهم من القيام بمناورات قد تقلب وجه المعمعة بطناً لظهر .

وصفوة القول انه اذا كان الموقف في جبهة الجنوب على جانب من الخطورة فلا يزال للقيادة السوفييتية امكانيات كبيرة تدعو الى التفاؤل . ومما لا شك فيه ان الضغط الالماني في الجزء الجنوبي من الجبهة سيخف بفضل هذه المناورة . هذا الى ان التقدم الالماني الذي جرى بفضل التراجع الستراتيجي الذي قام به المرشال تيموشنكو اسفر عن ابعاد خطوط المواصلات والتموين الالمانية . وينتظر ان ينزل المرشال تيموشنكو الى ساحة القتال ثماني فرقة مدعومة بمقادير هائلة من الدبابات والطائرات والمدافع .

هذا الى ان الاستعدادات لفتح الجبهة الثانية في اوربا تقوم على قدم وساق ، فالقوات الاميركانية المجهزة بكامل عدتها ترد بدون انقطاع الى ارلندا الشمالية وقد بوشر انشاء مئة وخمسين مطاراً جديداً في انكلترا . والمقول ان الجبهة الثانية سيوطأ لها بغارات كبرى يشترك فيها لا اقل من ثلاثة الاف او خمسة آلاف طائرة دفعة واحدة .

هذا من الوجهة العسكرية ، اما من الوجهة الديبلوماسية فأهم ما اتسم به شهر تموز المنصرم الاكثرية التي حصلت عليها حكومة مستر تشرشل في مجلس العموم خلال المناقشات التي دارت حول الموقف الحربي بمصر ، واعتراف حكومة واشنطن باللجنة الوطنية لفرنسا المحاربة .